# شوقي

تأليف

أنطون الجميِّل

**الكتاب:** شوقي

**الكاتب:** أنطون الجميِّل

**الطبعة:** ٢٠٢٣




**الناشر: وكالة الصحافة العربية ( ناشرون)**

**٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية**
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

**http://www. bookapa.com** **E-mail: info@bookapa.com**



**دار الكتب المصرية**
**فهرسة أثناء النشر**

الجميِّل ، أنطون
شوقي/ أنطون الجميِّل
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٠٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ١ – ٦٤٩ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٧٠١٢ / ٢٠٢٢

# شوقي



# أحمد شوقي

**بعض مراحل حياته**[1]

**وُلد أحمد شوقي سنة ١٨٦٨.**

**دخل مكتب الشيخ صالح سنة ١٨٧٣.**

**خرج من المدرسة الخديوية ودخل مدرسة الحقوق سنة ١٨٨٣.**

**سافر إلى أوروبا لدرس الحقوق والأدب سنة ١٨٨٧.**

**عاد إلى مصر سنة ١٨٩١.**

**نُفي في الحرب إلى إسبانيا سنة ١٩١٥.**

**عاد من منفاه في أواخر سنة ١٩١٩.**

**مؤلفاته**

**رواية لادياس.**

**رواية ورقة الآس.**

**رواية علي بك الكبير.**

**مذكرات بنتاؤر.**

**الشوقيات (الأولى)**

**الشوقيات – ٤ أجزاء.**

**رواية كليوباترا.**

**رواية مجنون ليلى.**

**رواية قمبيز.**

**رواية علي بك أو دولة المماليك.**

**رواية عنترة.**

**رواية أميرة الأندلس.**

**أسواق الذهب.**

**عظماء الإسلام.**

**رواية السيدة هدى.**

**رواية البخيلة.**

**كلُّ إنسانٍ يستطيبُ الثناءَ، ولكنَّ الأديبَ والشاعرَ، والمفكرين عامةً، يغتبطون بانتشار أفكارِهم وترديد أقوالهم أكثر من اغتباطهم بالثناء عليهم.**

**وقد أشار الفيلسوف الألماني نيتشه إلى ذلك إذ قال: «أصغيتُ إليهم لعلِّي أسمع صدى صوتي؛ فلم يصل إلى أُذني إلَّا صدى تصفيقهم«.**

ولقد حاولنا في هذه الدراسات التحليلية عن «شوقي» أن نُسمِعَهُ صدى أقواله، بالاستشهادِ بالكثير من شعرهِ تأييدًا لما قلنا عنه.

أ. ج.

---

(١) عن كتاب «١٢ عامًا مع أمير الشعراء» لسكرتيره أحمد عبد الوهاب أبي العز.

## شوقي شاعر الأمراء[1]

ما عرفنا شاعرًا صيغ له من قلائد المدح، ونُظم فيه من عقود الثناء، ما صيغ ونُظِم في شوقي: فهو الملقَّب بأمير الشعراء، وكلُّ قصيدةٍ له تُنعت بالعصماء، وكلُّ منظومةٍ من منظوماته تُعَدُّ شوقيةً غراء، كلماتُه الدر النظيم، ومعانيه الجوهر اليتيم، هكذا تصفه سيارة الصحف، وهكذا يقول فيه رواة شعره.

ولقد استحقَّ الكثيرَ من هذا الوصف: فهو شاعرُ الغزل والنسيب، وناظمُ الحوادثِ والتاريخ، صاحبُ الحِكم الرائعة والأمثال الذائعة، ترجمانُ العاطفة الوطنية والذائدُ عن العقيدة الدينية، مُحيي دارس الآثار ومستنهضُ الهِمم إلى الأعمال الكبار، الداعي إلى الاتحاد والوئام والمستخلصُ خالد الحقائق من الأحلام.

ومَن كان هذا شأنه يصعبُ أن يتناولَه البحثُ في عُجالةٍ موجزة؛ لذلك قصرنا بحثنا اليوم هذا على مظهرٍ من مظاهر شاعريته الجمة، وهو نزعتهُ السياسية وما طرأ عليها من التقلبات.

ولمَّا كان الكاتبون قد أفاضوا في الكلام عن شوقي «أمير الشعراء»، فقد أردنا أن نقولَ كلمةً عن شوقي «شاعر الأمراء»،

وما تخيَّرنا طرْقَ هذا الموضوعِ الوعِرِ المطلب، الشاقِّ المسلك يوم تحتفي البلادُ العربية قاطبةً بتكريم الشاعر الكبير، إلَّا لأن البعض ما زال يهمسُ به همسًا دون التعرُّض له بالبحث والتحليل، ويشير إليه من باب التلميح لا من باب التصريح، وإذا كان من مستلزمات التكريم إذاعةُ المناقب، فقد يكون من مستوجباته كذلك دفع بعض التهم؛ ليكون التكريم تامًّا كاملًا، لا تشوبه شائبة، وعلى كلٍّ فما خلا مخلوقٌ من تهمةٍ مهما علا قدره، بل قد تزيدُ التهمُ حولَه كلما علا قدره: كفى المرءَ نُبلًا أن تُعدَّ معايبُهْ.

•••

قالوا: إذا لُقِّب شوقي بأمير الشعراء؛ فلأنه كان شاعرَ الأمراء، على قاعدة القلب المعروفة عند العرب.

مدح أقيالَ مصر من إسماعيل إلى توفيق إلى عباس إلى حسين إلى فؤاد، وكثيرًا ما ذهبَ صعودًا من الأحفادِ إلى الأجداد، فتطرَّق إلى مدح سعيد وإبراهيم ومُحَمَّد علي، بل رجع إلى التاريخ القديم يُقلِّب صفحاتِه، فيمدح سلاطين مصر وخلفاءها وفراعينها، ويتغنَّى بمآثرهم ويشدو بآثارهم، مُجيدًا في مدحِهم جميعًا.

وكذلك كان شأنُهُ مع سلاطينِ بني عثمان الذين تعاقبوا على عهده: فكما مدح عبد الحميد أطرى رشادًا؛ وكما أطرى رشادًا

أشاد بمحمد الخامس، وكما تغنى بعظمة السلاطين والخواقين، تغنى بأبطال الحرية والدستور العثماني، وكما أطنب بذكر سلاطين الأستانة أطنب بذكر رجال أنقرة.

فكان من وراء ذلك أن اتَّهَمَهُ البعضُ في صحَّة عقيدته السياسية، وشكَّ في نزاهة مبدئه الاجتماعي، وقيلت عنه أحيانًا كلماتُ الزلفى والتملُّق، فزعموا أنَّه مدَّاح السلطة، أيةً كانت السلطة، ومطري القائمين بالأمر، أيًّا كان القائمون بالأمر.

تهمةٌ لا تقومُ على أساسٍ إذا حلَّلنا نفسية شوقي، وتشكُّكٌ يضمحِلُّ من نفسه إذا نظرنا إلى الحوادث والأحوال التي أحاطت بالشاعر، فحملته على تغيير اسم الممدوح دون أن يُغيِّرَ مطلبَهُ من المدح، وعلى تبديل العنوان دون أن يبدِّل ما تحت العنوان، فالنصائح هي هي مهما تغيرت المدائح، وهو القائل:

ولي غرَرُ الأخلاق في المدح والهوى

خَدَم الحريَّةَ؛ لأنَّه أحبَّها، ودعا إلى الإصلاح؛ لأنَّه لمسَ الحاجةَ إليه، وقال بوجوب نشر العلم ومكارم الأخلاق؛ لأنَّه عرف أنها أساسُ العمران، ومن أجلِ ذلك خدم السلطةَ؛ لأنه رآها واجبةً لازمة لتحقيق جميع تلك المطالب.

لا يصلحُ القوم فوضى لا سراةَ لهم ولا ســـراةَ إذا جهَّـــالهم ســـادوا

مدح جميعَ من ذكرنا من الملوكِ والأمراء، ولكنَّه نصح لكلٍّ منهم بالإصلاح، واحترام الحرية والعمل على ترقية البلاد، وحسن سياسة العباد، ورفع منار العلم، وهو يرى أنَّ جميع هذه الأمور لا تتمُّ في الشرق إلَّا على أيدي القائمين بالأمر فيه؛ لأنَّ الإصلاحَ إذا كان محققًا ولا محالة، كما يقولون، إمَّا من الأعلى وهو التحوُّل، وإمَّا من الأدنى وهو الثورة، فهو يريدُه عن طريق التحوُّل، أي من الأعلى على يد صاحب السلطان، هذه هي نظريتهُ الاجتماعية، فهو يطلبُ الخيرَ لهذا المجتمع الشرقي عن هذه الطريق.

ولا جَــالَ إلَّا الخــيرُ بــين ســرائري لـــدى شـــدَّةٍ خيريَّـــةِ الرغبـــاتِ

يمدحُ الخديو عباسًا، ولكنه يقول له:

لا يُظهـــر الكـــبراءُ آيـــةَ عـــزِّهم حـــتى يُعـــزُّوا آيـــةَ الأفكـــار

ويذكِّره وهو يفتتح الجامعة المصرية أنَّ:

تــرك النفــوس بــلا علــمٍ ولا أدبٍ تــرك المــريض بــلا طــبٍّ ولا آسِ

وإذا قال لتوفيق:

لك مصرُ يجرِي تحت عرشِكَ نيلُها ولك البلادُ عريضُها وطويلها

فقد قال له في القصيدة نفسها:

كانت خزائن مُلكها بيد البلى نَهبًا مباحًا للرقيب دخولُها

ألقت مفاتِحَها إليك فأصبحتْ يزنُ الزمانُ كنوزَها ويكيلُها

وإذا مدح إسماعيل أنصفه في قوله:

لم يرَ الناسُ مثلَ أيام نعما ك زمانًا ولا كبؤسك عهدا

كنتَ إن شئتَ بُدِّل السعدُ نحسًا وإذا شئت بُدِّل النحس سعدا

وإذا مدح الملك فؤاد عقَّب على المدح بقوله:

إنْ سرَّك الملكُ تَبنيهِ على أُسُسٍ فاستنهضِ البانيَين العلمَ والأدبا

وارفعْ له من حبالِ الحقِّ قاعدة ومدَّ من سبب الشُّورى لها طُنُبا

يدعو الأزهريين إلى الالتفاف حول العرش:

كونوا سياج العرش والتمسوا له نصرًا من الملك العزيز مؤزَّرا

**ولكنه يعلق على ذلك بقوله:**

وتفيئوا الدستور تحت ظلاله ... كنفًا أهشَّ من الرياض وأنضرا

**فماذا يهمنا اسم الممدوح؟ وماذا يهمُّ، بنوع خاص، الأجيالَ القادمة؟ إذا كان المدحُ ينطوي على مثلِ هذه العظاتِ والحِكم البالغة، فليمدحِ الشاعرُ من شاء من الملوك ما دام يقول له:**

والعدل في الدولات أُسٌّ ثابتٌ ... يُفْنِي الزمانَ ويُنفِدُ الأجيالا

**أو ما دام يهيب به:**

إن ملكتَ النفوسَ فابغِ رضاها ... فلها ثورةٌ وفيها مضاءُ

يسكنُ الوحشُ للوثوب من الأسْـ ... ـرِ فكيف الخلائقُ العقلاءُ

**ألا يحتاج الشاعر - كما يحتاج الحكيم - إلى الحيلة ليحمل حملَتَهُ على روح الاستبداد كما يفعل شوقي مشيرًا إلى توت عنخ آمون:**

المستبِدُّ يُطاقُ في ناووسِهِ ... لا تحت تاجِهِ وفوق وثابِهِ(٢)

والفرد يؤمن شرُّهُ في قبره ... كالسيف نام الشرُّ خلف قرابِهِ

ألا يُعَدُّ الشاعرُ أبلغ مرشدٍ وأهدى هادٍ - في مدح الملوك - إذا عرف أن يقول كشوقي:

زمـــانُ الفـــردِ يا فرعـــونُ ولَّى ودالـــت دولـــةُ المتجبرينـــا

وأصـــبحتِ الرعـــاة بكـــل أرضٍ علـــى حكـــم الرعيـــة نازلينـــا

فـــؤاد أجـــلُّ بالدســـتور دنيـــا وأشـــرفُ منـــك بالإســـلام دينـــا

بـــنى «الـــدار»[٣] الـــتي لا عـــزَّ إلَّا علـــى جنباتهـــا للمالكينـــا

ولا اســـــتقلال إلَّا في ذراهـــــا لمتبـــــوعٍ ولا للتابعينـــــا

أليس من البراعة أن تمدح المرءَ بمَحْمَدَةٍ لتُحبِّبها إليها، وأن تذمَّ له منقصةً لتكرِّهه فيها؟ أليس ذلك ما فعله شوقي في قوله للسلطان محمَّد رشاد:

جـدَّدتَ عهـد «الراشـدين» بسـيرةٍ نســجَ الرشــادُ لهــا علــى منوالِــه

بُنِيَت على الشورى كصالح حكمهم وعلــى حيــاةِ الــرأي واســتقلالِه

وفي قوله:

وإذا ســبا الفــردُ المســلَّطُ مجلسًــا ألفيـــتَ أحـــرارَ الرجـــال عبيـــدا

بمثل هذا مدح شوقي الملوكَ والأمراءَ، متخذًا المديح في أغلب الأحيان وسيلةً لطلب العدل والإنصاف في الرعية، ولتمجيد الشورى والحرية، كما رأيت في ما ذكرنا وما تجد منه الشيء الكثير في سواه.

وهكذا لم يغيِّر عقيدتَهُ السياسية ومبدأه الاجتماعي، فهما هما في جميع مدائحه، وإن تبدَّل اسمُ الممدوح، والشاعر شاعرٌ أيًّا كان الرويُّ الذي يختارُه لقصيدته، ما دامت نفسهُ حساسةً وقريحتهُ فيَّاضة، وهل اسم الممدوح في جميع ما ذكرنا سوى الرويِّ؟

وقد قال هو نفسه:

جـــلالُ الملــــكِ أيَّامٌ وتَمضِـــي ... ولا يَمضِـــي جـــلالُ الخالـــدينا

ونعتقد أنه لا بُدَّ من شجاعةٍ في النفس للإقدام على ذلك، كما أنه لا بدَّ من كثير من البراعة والمرونة واللباقة لهذا التغيير في الشكل دون التغيير في الجوهر، حتى يتمَّ ذلك بلا تبجُّح ولا تعصُّبٍ للمبدأ الجديد، والتعصُّب كما هو معروف، ملازِمٌ عادةً لمن يذهبُ مذهبًا جديدًا في السياسة أو في الدين، وهذا ما عرف شوقي أن يتجنَّبَهُ، فإذا دعا إلى حكومةٍ جديدة، انقيادًا لصوت الشعب، فهو لا يُنكِرُ صداقاتِه القديمة، بل لا ينفضُ يَده من يد الذين لا يزالون على غير فكره، وإذا دالت دولةٌ من دول الشرق

التي كان لها نصيبٌ من مدحه وتمجيده، فلا يرى وجوبَ النعي والنحيب والامتناع عن مجاراة الزمان، بل يبرزُ للدولة الجديدة مُطريًا مادحًا مع دعوةٍ إلى الإصلاح وإلى تحقيق ما لم يتحقَّق على عهد سالفتها، فخلاصة مبدئه: الترحيب بالحاضر مع احترام الماضي، وأتمُّ مثالٍ على ذلك قصائدُهُ في الأستانة وأنقرة، ورجالِ هذه ورجالِ تلك.

وهكذا يضربُ خيامَهُ في معسكرٍ غير الذي كان ضاربًا خيامَه فيه بالأمس، ولكن دون أن يحقَّ رميهُ بالجحودِ، أو اتهامهُ بالخيانة والمروق.

| | |
|---|---|
| أأخـــــونُ إسماعيــــــلَ في أبنائـــــه | ولقـــد وُلِـــدتُ ببـــابِ إسمـــاعيلا |
| ولبســـــتُ نعمتَـــــهُ ونعمـــــةَ بيتـــهِ | فلبســـتُ جَـــزْلًا وارتـــديتُ جمـــيلا |

ومَن نشأ كشوقي في عهدٍ كانت فيه مصرُ بين سلطان الفرد المتأصّل في صدور الشرقيين وحكم الشورى النابت في عقولهم، ومَن رَبِيَ مثلهُ في قصورِ الأمراء وحلَّ ضيفًا على السلاطين، ثمَّ رأى كيف تنهار القصورُ وتثلُّ العروش، وكيف تُولَدُ الثورات فتهتزُّ لها الأعصابُ اهتزازًا، وكيف يقومُ الدستورُ فيسكب على القلوب سلامًا ويثير في النفوس اعتزازًا، ومَن عرف كشوقي نعيم الحياةِ

وبسطة الجاه، ثمَّ ذاق ألمَ النفي والإبعاد، لا يُستكثَر عليه أن يعرِفَ كيف يرتفعُ فوق الأشخاص ويسمو عن العرَض الزائل إلى الجوهر الخالد، فيمدح المَلِك لخير المملكة، ويمجِّد السلطانَ لخير السلطنة؛ لأن تجاريبَ الزمان زادت في استقلال عقلِه ووسعت دائرته للإحاطة بكل فكرة سامية. فإذا رأى في تلك الفكرة فائدةً لذلك الشرقِ الذي تغنَّى به، فلا يتأخَّرُ عن الإشادة بها، ولو كانت من الأفكار التي لم يقُلْ بها فيما مضى، وهو في ذلك ليس بالجاحد ماضيه، ولا بالمنكر عقيدته، بل هو من طائفةِ الرجال الذين هذَّبهم الدهرُ وثقَّفهم، فأصبحوا يحدبون على وطنهم، ويتألمون لآلامه، فيطلبون له النجدةَ من أي جانبٍ بدَتْ، ولو من جانب الأفكار التي كانت بالأمس مغايرةً لأفكارهم؛ فلا ينعزلون في بُرجِ حقدِهم وغضبهم بحُجَّةِ الاحتفاظ بالمبدأ، بل يواصلون الجهادَ في خدمةِ وطنهم ولو تحت رايةٍ جديدة.

وعلى ذلك يمكن القولُ إنَّ مدائح شوقي صوَرٌ واستعاراتٌ شعرية، لا عقيدة سياسية، فإذا مدح الملوكَ والأمراءَ لا يمدحُ سلطتَهم المطلقة، ولا يراهم كما رآهم بعضُ قدماء الكتاب في الشرق والغرب من طينةٍ غير طينة البشر.

لا يقولنَّ امرؤ أصلي فما ... أصلُهُ مسكٌ وأصلُ الناسِ طينْ

وإذا غيّر أسماءَ ممدوحيه، فإنه لا يغيّر ما يقصدُ إليه من وراء المدح، فما ممدوحُه سوى الرويِّ في الشعر، لا يُنقِص من قيمةِ الشعر ولا من مبلغ مرماه الاجتماعي، وما كانت هذه التقلُّباتُ لتنتقص مجدَهُ في الزمن الآتي، وإن أراد البعضُ انتقاصَه في الزمن الحالي: فالأجيالُ الآتية لن تعرفَ شيئًا عن ضعفنا ويأسنا ووهن عزيمتنا، بل ستُدرِكُ كيف يستطيعُ المرءُ أن يُعدِّلَ رأيَه دون أَن يكون جاحدًا، ولا سيما في عهد الثورات الفكرية والانقلابات السياسية.

بل إنَّه لولا هذه التقلباتُ ما كان شوقي على ما هو الآن، فقد قال النقادة: «لا هارب **La Harpe**» ما معناه: «إنَّ في عصور الاضطرابات ما يُضعِفُ الحكوماتِ، وما يقوِّي الشعرَ والخطابة.»

فمن رأى كلَّ ما رآه شاعرُنا من الحوادثِ العظام يزدادُ احترامًا لكل ما من شأنه دعمُ السلطة والعقيدة، والقضاءُ على الفوضى في الأفكار، فلا يفهم المنازعات الحزبية، بل يدعو إلى الوئام والمسالمة، اسمعوه ينادي بأعلى صوته:

إلامَ الخلـــــفُ بيــــنكمُ إلامـــا          وهــذي الضَّــجةُ الكــبرى علامــا

وفـــيمَ يكيـــد بعضـــكم لـــبعض        وتبــــدون العـــداوة والخصـــاما

**أو يقول:**

وإذا دعـــوتُ إلى الـــوئام فشـــاعرٌ        أَقصـــى منـــاهُ محبـــةٌ وســـلامُ

**ودَعْوَتُهُ إلى الوئام جامعةٌ شاملة، فهي تتناول الأديانَ كما تتناولُ الأحزاب، فما قاله في «موسى والمسيح وأحمد» لم يقله شاعر قبله.**

**وإذا كنَّا لا نلومه لقوله الآن:**

اهجـــروا الخمـــرَ تُطيعـــوا الله        أو تُرضـــــــوا الكتــــــــابا

إنهـــــا رجـــــسٌ فطـــــوبى        لامـــــــرئٍ كــــــفَّ وتابا

**بعد أن كان قد قال في صباه:**

رمضـــانُ ولَّى هاتِهـــا يا ســـاقي        مشـــتاقةً تســـعَى إلى مشـــتاق

**فعلامَ نلومه؛ لأنَّه قال في سوى ذلك غيرَ ما قاله بالأمس؟**

**وهذا الشاعر الأرستقراطي الذي يجوز بحقٍّ تلقيبه بشاعر الملوك والأمراء، كان أيضًا شاعرَ الشعب فتغنَّى بأبنائه العصاميين ودافع عن حقوقه فقال:**

سُـــخِّر النـــاسُ وإن لم يشـــعروا     لقـــويٍّ أو غــــنيٍّ أو مبـــــينْ

والجماعــــاتُ ثنــــايا المرتقــــى     في المعــــالي وجســـورُ العــــابرين

وخاطب العمَّالَ بقوله:

قـــــد دعـــــاكم ذَنَــــبَ     الهيئــــــــةِ داعٍ فأَصــــــــابا

هــــي طـــــاووسٌ وهـــــل     أحسَـــــــنُهُ إلا الـــــــذنابا

ولا يتبادر إلى ذهننا أن هذا التغيير يتمُّ عنده بلا نزاعٍ ولا تردُّد بين الماضي الحاضر، فهو يقول تارة:

لا تحــذُ حــذوَ عصــابةٍ مفتونــةٍ     يجــدون كــلَّ قــديمٍ شــيءٍ منْكــرا

ويقول أخرى:

الهــدم أجمــلُ مــن بنايــةِ مصــلح     يبـني علـى الأُسُـسِ العتـاقِ جديـدا

وصفوةُ القول: إنَّ شعرَهُ مرآةٌ للرأي العام، وتَبَعٌ لتقلُّباتِ الحوادث يُسجِّلُها فيه ويرويها في تلك القصائد التي يتغنى بها أبناءُ العربية في كل قُطر، فتتجلى فيها نزعات الرأي العام أكثر ممَّا تتجلى فيها مبادئُ الشاعر السياسية، فهو كالنحلة تأخذ عسلها من كل زهرة، أليس شوقي القائل في النحل:

فهـــــلْ رأيــــتَ النحـــــلَ عـــــن أمانـــــةٍ مُقصِّـــــرَهْ

مـــا اقترضـــتْ مـــن بقلـــةٍ أو اســـــــتعارت زَهَـــــرَهْ

أدَّت إلى النـــــاسِ بـــــهِ سُـــــــكَّرة بســـــــكَّرهْ

**وما دمنا في ذكر تسجيل الحوادثِ وتدوين الوقائع في الشعر، فخليقٌ بنا أن نُشيرَ إلى ما كان لشعراء مصر من الفضل العميم على نهضتها من خليل وحافظ إلى العقاد والمازني، ومن الرافعي ومحرم إلى الكاشف ونسيم، فقد تابعوا النهضة في سيرها فسجلوا وقائعها في قصائدَ ملؤها الروحُ السامية، بل سيَّروا النهضةَ في منهجها القويم بسديد أقوالهم، فرفعوا منارَ مصرَ وأعلوا شأنها بين الأمم.**

**وإذا رجعنا إلى أمير الشعراءِ أو شاعر الأُمراء، ذكرنا أنه يُروَى عن الإيطاليين قولهم: لو كانت حكومتنا جمهوريةً ما انتخبنا رئيسًا لها غيرَ ملكنا ...**

**ونعتقد أنه لو كانت دولة الأدب إمارة ما اختار أدباؤنا أميرًا لها غير شاعر الأمراء، فهو جديرٌ بأن يتسنَّم عرشَ الإمارة عن رضًى واختيار من أركان دولة الشعر في هذا العصر؛ لأنه قد اجتمع له من صفات الشاعرية ما يؤهله لذلك، ولعلَّ الاحتفاءَ به**

في هذا الأسبوع يتمُّ بمبايعته رسميًّا بالإمارة.[٤] فقد صح فيه ما قاله عنه المرحوم إسماعيل صبري باشا منذ ثلث قرن:

مَرحَبًــا بالقصــيدِ يتلــوهُ للشِعــ ــــر أمــيرٌ يُصــغي لــهُ أُمــراءُ

---

(١) نشر هذا البحث في «السياسة الأسبوعية» (٣٠ أبريل سنة ١٩٢٧) بالعدد الخاص بتكريم شوقي.

(٢) الوثاب: السرير الذي لا يبرح الملك عليه.

(٣) دار النيابة.

(٤) وقد تمت هذه المبايعة في الحفلة التي أقيمت بعد أيام (٢٩ أبريل سنة ١٩٢٧) في دار الأوبرا الملكية لتكريم شوقي، فألقى فيها الشاعر الكبير «حافظ إبراهيم» قصيدة عامرة تقدم في أثناء إلقائها من المقصورة التي كان أحمد شوقي جالسًا فيها، وأخذ بيد زميله منشدًا بين التصفيق وهتاف الإعجاب بالشاعرين:

أمــيرَ القــوافي قــد أتيــتُ مُبايعًــا وهـذي جمـوعُ الشـرقِ قـد بايعَـتْ معي

## شوقي عاش شاعرًا، ومات شاعرًا[1]

ما أَشأم هذا الصيفَ على الأدبِ العربي!

غيَّبتْ أشهُرُه الثلاثة من سماءِ الشعر فرقَدَيه، وقوَّضت من صرحِ الأدبِ ركنيه.

ما همَّت شمسُ الصيفِ بدخول «برجِ الأسد» في أوائل الفصل حتى أغارت على الأدبِ فطاحت بفارس ميدانهِ، وما استوَتْ عندَ أواخرِ الفصل في «برج الميزان» حتى عبثت بفيصلِ الشعر وميزانهِ.

ما كفكفتْ مصرُ دموعَها على «حافظ» حتى عادت تُطلِقُها اليومَ على «شوقي»، وما انتهت أنديةُ العرَب من توفية «حافظ» حقَّ التأبين والرثَاءِ، حتى حمل إليها البرق نعي إمام الشعر وأمير الشعراء.

منذ عشرة أسابيعَ أو ما يقربُ من هذه المدَّة، كان الأدبُ العربي يتيهُ بشاعريه فخرًا، ويطاولُ بهما أزهى عصور الأدب زهوًا، وها هو اليومَ، وقد فُجِع بهما الواحد تلوَ الآخر، يبكيهما معًا، فلا حول ولا قوة إلا بالله!

أما مصرُ فإن شعرَ شوقي وحافظ قد أجلسَها الصدرَ بين بلاد العرب، وثبَّت في يدِها مدةَ ثلث قرنٍ صولجانَ الأدب، فكانت مصر تباهِي سائرَ الأمصار، وكان عصرُها بشاعريها عصرًا يُدِلُّ على العصور ويفاخر عهدَ بغدادَ والأندلسِ في إبَّان الازدهار.

يقول اللاتين: «يصيرُ الخطيبُ خطيبًا، ولكنَّ الشاعرَ يُولدُ شاعرًا.»

قد وُلد شوقي شاعرًا، وظلَّ شاعرًا من مهدِه إلى لحدِه.

كان شاعرًا يوم دخلت به جدَّته على الخديوي إسماعيل، وهو في الثالثة من عمره؛ وكان بصرُه لا ينزلُ عن السماءِ من ارتجاج أعصابه، فطلب الخديوي بَدرةً من الذهب، ثم نثرَها على البساطِ عند قدميه؛ فوقع شوقي – كما روى في مقدمة ديوانه – على الذهبِ يشتغل بجمعهِ واللعب به، فقال الخديوي لجدَّتِه: «اصنعي معه مثلَ هذا، فإنه لا يلبثُ أن يعتادَ النظرَ إلى الأرض.» قالت: «هذا دواءٌ لا يخرجُ إلَّا من صيدليتك يا مولاي.» قال: «جيئي به إليَّ متى شئتِ، إني آخرُ من ينثرُ الذهبَ في مصر.»

وكان شوقي شاعرًا، وهو طالبٌ في المدرسةِ، وقد أخذت إلاهةُ الشعرِ تُوحي إليهِ بالصورِ الجميلةِ والكلامِ الموزونِ الموسيقيِّ.

وكان شوقي شاعرًا، وهو يطلبُ الحقوقَ والآدابَ في فرنسا؛

وقد نظم في تلك الحِقبةِ من القصائدِ ما كان يبشِّرُ بما سيصيرُ إليه من الإِمامة والإِمارةِ في دولةِ القريض.

وكان شاعرًا، وهو يُمثِّل الحكومةَ المصريةَ في مؤتمر جنيف؛ فنظم قصيدةً غرَّاء تضمَّنت ما وقعَ في وادي النيل من كبارِ الحوادثِ منذ فجرِ التاريخ.

وظلّ شاعرًا في جميع أدوار حياته، وهو في أوج الجاه وأبَّهة المناصب العالية والنفوذ لدى الحكام؛ وظلّ شاعرًا، وهو في منفاه يطوفُ ربوعَ الأندلس ويتغنى بمفاخرِها الدارسة، ويبكِي ويستبكِي حنينًا إلى وطنه.

وظلّ شاعرًا بعد عودتهِ إلى ذلك الوطن، بل قد يكون هذا العهدُ، وهو عهدُهُ الأخير، أَخصبَ أدوارِ عمرِه إنتاجًا شعريًّا، فقد أقلع فيه عمَّا ألفه اضطرارًا، بحكم لقبه ومنصبه، من الموضوعات التي حَفَلَ بها ديوانُهُ الأوَّل، وتوفَّر على كل موضوعٍ وطنيٍّ تاريخيٍّ عمرانِي، وكأنَّ قريحتَهُ كانت تزدادُ صفاءً ورواءً مع تقدُّمِه في السن، وكأنَّ شاعريتَهُ كانت تزيد تدفُّقًا وغزارةً كلما أخذ معينُ الحياةِ ينضُبُ في جسمه النحيل.

فلم يكتفِ بالقصائد يَقصِدُها، بل عمد إلى أشهرِ الحوادثِ من تاريخ مصرَ وتاريخ العرب ينظِمُها رواياتٍ تمثيليةً شعرية، وأَقبل

على الفن الروائيّ يُعالجهُ في سنٍّ يُودِّعُ فيها هذا الفنَّ غيرُهُ من الشعراء.

وهكذا كان في الحلقةِ الأخيرةِ من عمرهِ يُطالعنا في كلِّ حادثٍ من الحوادث بقصيدةٍ عصماء، ويزُفُّ إلينا في كلِّ عامٍ روايةً حسناء.

كان شاعرًا في «كرمة ابن هانِئ» يومَ كانت في «المطريَّة» مباءةَ أهل الفضلِ والأدبِ، وبعد أن انتقلت إلى «الجيزة» على ضفَّةِ النيل يجمعُ فيها أميرُها نفرًا من أصحابِ النظر والرأي في الكتابة، فيُطلعُهم على رواياتِه قبل أن يدفَعها إلى خشبة المسرح.

وظلَّ شوقي شاعرًا في مماته: ففي الليلةِ التي تقدَّمتْ صباحَ منيتهِ، كانت إحدى المغنيات الشهيرات تُنشِدُ قصيدةً من قصائدِه، والجمهورُ يُصفِّقُ طربًا لروعة الشعر، وبعد وفاته ببضع ساعاتٍ كانت آخرُ قصيدةٍ نظمها تُلقى في حفلةِ الشباب القائم بمشروعِ القرش.

وقد يختلفُ الرأيُ في بعض شعره؛ غير أنَّ في دواوينه الكثيرَ مما يرفع قائله إلى المرتبة الأولى بين الشعراء، ويحفظُ ذكرَهُ خالدًا في تاريخ الأدب.

ولقد كان، رحمه الله، على ما نال من بسطة العيش وكبير

الألقاب وواسع الجاه وبُعد الشهرة، وديعَ النفسِ مُنْخفِضَ الجانبِ دَمِثَ الأخلاق.

وكان عفَّ اللسان والقلم؛ لم ينطقْ هجرًا، ولم يكتب هجوًا، قال فيه المرحوم إسماعيل صبري باشا:

مرحبًا بالمقالِ سمحًا كريمًا    لم يَشُبْهُ هجوٌ ولا إيذاءُ

مرحبًا بالبيان سحرًا وبالشعـ    ـرِ تُحلِّيهِ حكمةٌ غراءُ

أما برُّهُ بأولادِه وعطفُهُ على أهل بيتهِ فقد كانا مضربَ المثل؛ فكأنَّهُ خُلِقَ ليكونَ أبًا، كما وُلد شاعرًا، وقد نظمَ في بنيهِ قصائدَ سوف يخلُدُ معها ذكرُهم.

•••

أَمَّا الآن، وقد مات حافظ، فمن ذا الذي يوفِّي شوقي حقَّهُ من الرثاء، وهو القائلُ منذ شهرٍ في رثاء حافظ:

قد كنتُ أُوثرُ أن تقولَ رثائي    يا منصفَ الموتى من الأحياءِ

لكن سبقتَ وكلُّ طولِ سلامةٍ    قَدَرٌ وكلُّ منيَّةٍ بقضاءِ

وهكذا لفَّت المنيةُ اليومَ علمًا من أرفعِ أعلامِ الشعر، وطوَت صفحةً من أمجد صفحات الأدب العربي.

وعندما أُودِع شوقي القبرَ عند غروبِ شمسِ اليوم، لم يَسَعْنا إلا أن نذكرَ قوله:

أقولُ لهم في ساعةِ الدفنِ خفِّفوا عليَّ ... ولا تُلقوا الصخورَ على قبري

ألم يكفِ همٌّ في الحياةِ حملتُهُ ... فأحمِلَ بعدَ الموتِ صخرًا على صخرِ

---

(١) نُشرت بالأهرام يومَ وفاة شوقي.

## شوقي شاعريّتُهُ ومميِّزاتُها[1]

منذُ خمسِ سنواتٍ وبعضِ السنة اجتَمعنا في هذا المكانِ نفسِهِ لتكريمِ «شوقي»، واشتركتْ معنا وُفودُ الشرقِ العربيّ في ضَفْر إكليل الغارِ على مَفرقِ أمير الشعراء، كما هي تشترك معنا اليومَ في نَثْر أزاهيرِ الذكرى على قبرِهِ، وكأنِّي بالفقيدِ الكريم ماثلًا كالأمس في مقصورته هذه، وكأني بفقيدِنا العظيم الآخر – حافظ إبراهيم – باسطًا يدَهُ إليه، وأَجواءُ هذه القاعةِ تردِّد، بين التصفيق والهتاف، صدى صوتِه الفخم:

أميرَ القوافِي قد أتيتُ مُبايعًا وهذي وُفودُ الشرقِ قد بايَعَتْ معي

أما الفرقُ بين حفلتِنا هذه وحفلتِنا تلك، فالفرق بين نشوةِ الحياةِ وهمدةِ الموتِ، وبين بهجةِ الأعيادِ وخشوعِ المآتم، ولَئِن قصَّرَ خطيبُ اليومِ عن خطيبِ الأمس.

فمعذِرَةُ اليراعَةِ والقوافِي جلالُ الرزءِ عن وَصفٍ يَدِقُّ[2]

حديثي معكم أيها السادة، عن شاعرية شوقي، أو عن «شوقي الشاعر»، وهل كان شوقي في حياته إلَّا شاعرًا؟ وهل

يبقَى منهُ بعدَ مماتِه غيرُ الشعر؟ بضعةُ أسابيعَ مرَّتْ على وفاتِه، وها قد نُسِيَ كبيرُ موظفي المعيَّة وحاملُ الألقابِ الضخمةِ من الدولةِ العلية؛ واضمحلَّ صاحبُ الثروةِ والجاهِ والنفوذ، وعَفَا أَثَرُ العضوِ في مجلسِ الشيوخ، فأصبحنا ولا نروِي عنه إلَّا ذلك الشعرَ الذي أرقص وأطرب، ولا نذكرُ منهُ إلَّا ذلك الشاعرَ الذي نظم فأعجب.

ولقد أدرك ذلك هو نفسُهُ إذ أنشدَ يومَ كان صاحبَ الصول والطول:

شـــــــــاعرُ العزيـــــــــــزِ ومـــــا بالقليــــل ذا اللقــــبُ

ويوم قال بعد منفاه:

مـا مـاتَ مـن حـازَ الثـرى آثارَهُ واسـتولَتِ الـدنيا علـى آدابِـه

بل إنَّ قيمةَ الشاعرِ في نظرِهِ لم تكنْ لتضارعها قيمةٌ.

والله مــا تــدرِي لعــلَّ كفــيفَهم يومًــا يكــونُ أبا العــلاءِ المبصــرا

لـو تشْـتريهِ بنصـفِ مُلكِـك لم تجـدْ غبنًـا، وجـلَّ المشـترِي والمشـترَى

بل غالى حتى رأى الشعرَ مبعثَ كلَّ نهضةٍ قومية:

لم تَثُــرْ أُمَّــةٌ إلى الحــقِّ إلَّا بهُــدَى الشــــعرِ أو خَطـــا شَـــيطانِهْ

بل زاد في الغلوِّ فقال:

أنتمُ الناسُ أيها الشعراءُ ...!

حَملَ قيثارةَ الشعر، وهو غلامٌ يافع، ولم تقعْ من يدهِ إلَّا صبيحةَ وقعَ صريعَ الردى، ولقد ظلَّ بين العهدَين، ما يَقرب من نصفِ القرن، يُخرج منها أعذبَ الأنغامِ وأشجاها، حيثما كان وكيفما كان: في مواقف الروع ومواقع الحروب:

أمـولاي غنَّتـكَ السـيوفُ فأطربـتْ فهــلْ ليراعِــي أنْ يُغــنِّي فيُطــربُ

وعنـدِي كمـا عنـدَ الظُّبـا لـك نَغمـةٌ ومُختلَـفُ الأَنغـامِ للأُنـسِ أجلـبُ(٣)

أو في مواطِن الطمأنينة والابتهاج:

أَشــهَى مــن العــودِ المــرنَّمِ مَنطقًــا وأَلـــذُّ مـــن أوتارهِ تغريـــدا(٤)

لم يَشُدَّ إلى قيثارةِ الشعر وترًا جديدًا، ولكنَّه عرف أن يُنطق الأوتارَ القديمةَ بنغماتٍ جديدة مُستعذَبة، فأوتار العود معدودة، وهي هي، عدًّا ونوعًا، تحتَ أنامل العازف، ولكنَّ كلَّ عازفٍ يفتنُّ في النقرِ عليها ما شاءَ لهُ الافتنانُ، فيُسمِعُنا منها الجديدَ من

الألحان، وألوانُ الشبح الشمسيّ واحدةٌ، ولكنَّ كلَّ مصوِّرٍ يبتدع من مزيجها شتَّى الألوان.

وهكذا كانت أوتارُ القيثارةِ القديمة في يدِه تُخرِجُ أَلحانًا مستجدَّةً في كلِّ موضوعٍ فكان:

| | |
|---|---|
| يكـــادُ إذا هـــو غـــنَّى الـــورى | بقافيــــةٍ يُنطِـــقُ القافيَـــهْ |
| وتَحكـــمُ في الـــنفسِ أوتارُهُ علـــى | العـــودِ ناطقـــةً حاكيَـــهْ[٥] |
| ومـــــــا هـــــــي أوتارُهُ | الناطقـــــةُ الحاكيـــــة ...؟ |

أيها السَّادة، الدينُ والوطنُ عاطفتانِ غريزيَّتانِ في قلوبِ الناس، فهُما وَترانِ أساسيَّان في قيثارة الشاعر، ما داناهما بلمسٍ إلَّا أخرجا نغمًا بعيدَ القرار، وما نقر عليهما إلَّا استثار في صدور الجماهير الغيرة والنخوة والحماسة.

## وتَر الدين

نقر «شوقي» على وتر الدين فتغنَّى بالإسلام غناءً جزلًا فخمًا، بلا تصنُّعٍ ولا تكلُّف، بل عن عقيدةٍ وإيمان، فكستْ عقيدته نظمَه حلَّةً قدسية، وعقد إيمانه حول هذا النوع من شعره هالةً نورانية.

**اسمعوه يعتزُّ بالإسلام:**

آياتُـهُ كلَّمـا طـال المـدى جُـددٌ يَـزينُهنَّ جـلالُ العتـقِ والقـدمِ

يكـادُ في لفظـةٍ منـه مُشـرَّفَةٍ يُوصـيكَ بالحـقِّ والتقـوَى وبالـرَّحِمِ

يا أفصـحَ النـاطقينَ الضـادَ قاطبـةً حـديثُك الشـهدُ عنـدَ الـذائقِ الفَهِـمِ

حَلَيْـتَ مـن عَطَـلٍ جيـدَ البيـانِ بـهِ في كـل منتشـرٍ في حسـن منـتظمِ

يا «أحمـدَ» الخـيرِ لي جـاهٌ بتسـميتي وكيـفَ لا يَتسـامَى بالرسـولِ سمـيّ

**واصغوا إليه يَفخَرُ بدول الإسلام:**

دَعْ عنك «روما» و«آثينا» ومَا حَوَتا كلُّ اليواقيتِ في «بغداد» والتُّوَم[٦]

وخـلِّ كسـرى وإيـوانًا يُـدِلُّ بـهِ هـوى علـى أثَـر النـيران والأيمِ[٧]

دارُ الشـرائعِ رومـا، كلمـا ذُكِـرت دارُ السـلامِ لهـا ألقـت يـدَ السـلمِ[٨]

مـا ضـارعتها بيـانًا عنـد مُلتـأَمٍ ولا حكتهـا قضـاءً عنـد مُختَصَـمِ

**وبملوك الإسلام:**

ولا احتوت[٩] في طرازٍ من قياصرها علـى رشـيدٍ ومـأمونٍ ومُعتصِـمِ

مــن الــذين إذا سَــارت كتــائبُهم تصـــرَّفوا بحـــدودِ الأرضِ والـــتُّخُمِ

ويجلســـون إلى علــمٍ ومعرفــةٍ فــلا يُـــــدَانَونَ في عقـــــلٍ ولا فَهَـــــمِ

وإذا انتصرت دولةٌ من دول الإسلام ترنَّح طربًا ورنَّح الشرقَ معه:

وأرَّجَ الفــتحُ أرجــاءَ الحجــاز وكــم قضــى الليــاليَ لم يَــنعَمْ ولم يَطِــبِ

وازَّينــت أُمهــاتُ الشــرقِ واســتبقَتْ مَهــارِجُ الفــتح في الموشــيةِ القشُــبِ

هــزَّت دمشــقُ بــني أيُّــوبَ فــانتبهوا يُهنِّئــونَ بــني حَمــدانَ في حَلَــبِ

ومســلمو الهنــدِ والهنــدوسُ في جَــذَلٍ ومســلمو مصــرَ والأقبــاطُ في طــربِ

ممالــكٌ ضــمَّها الإســلامُ في رحِــمٍ وشيجةٍ[١٠] وحواها الشرقُ في نسب

يُقدِّسُ الإسلام ويجلُّ تقاليدَه العريقة، وينبري للذود عن الخلافة بجميع جوارحه:

مَـــنْ قائـــلٌ للمســـلمين مقالـــةً لم يُوحِهـــا غـــيرُ النصـــيحةِ واحِ

عهـــــدُ الخلافـــــةِ فيَّ أولُ ذائـــــدٍ عــن حوضــها ببراعِــهِ نضَّــاح[١١]

حُــبٌّ لــذاتِ اللهِ كــان ولم يَــزَلْ وهــوًى لــذاتِ الحــق والإصــلاح

وهو لا يُنزِّه المسلمين عن الأخطاءِ والهفوات، ولكنَّ الذنبَ إنما هو ذنبهم لا ذنبُ الإسلام.

| | |
|---|---|
| مـن عـادةِ الإسـلام يرفـعُ عـاملًا | ويُســوِّدُ المقــدامَ والفعَّــالا |
| ظلَمتْــهُ أَلْسِــنةٌ تُؤَاخِــذُهُ بِكُــمْ | وظلمتمــوهُ مُفــرِّطين كسَــالى |
| هــذا هلالُكــمُ تكفَّــل بالهــدى | هـل تعلمـون مـع الهـلال ضـلالا؟ |

ومن هذا الشيءُ الكثيرُ ممَّا لا مجالَ لإِيراده بجملتهِ، وتجدونَه في شتَّى قصائدِه، ولا سيما في الهمزية النبوية، وعرفات، والخلافة وذكر المولد، والأزهر، والهلال، ونهج البردة، ورثاء مقدونيا إلخ.

ومثلُ هذه النبضات لا تَصدُرُ إلَّا عن قلبٍ عامرٍ بالإيمانِ:

| | |
|---|---|
| شـعرٌ مـن النَّسـقِ الأعلـى يؤيِّـدُهُ | مـن جانـبِ الله إلهـامٌ وإيحـاءُ |

روى كاتبهُ الأديب في كتاب أصدرَهُ منذ أسبوع[١٢] أنَّه كان يقرأ لهُ في «المختصر من مكاشفة القلوب» للغزالي قال: «وبقيت حتى منتصَفِ الساعة الواحدة، ولم يبقَ إلَّا موضوعٌ واحد، وهو وفاة رسولِ الله ﷺ، ولكني لفتُّهُ إلى أن هذا الوقتَ موعدُ رياضتهِ، فقال: حتى تُتِمَّ، فقرأتُ له موضوعِ الوفاة، فأخذ يبكي.» ا.هـ.



شوقي وأولاده (في سنة ١٩٠٧).

وكان تمسكه هذا بالدين بعد أن خَبَرَ الدنيا وذاق حلوَها ومرَّها:

جنيـــتُ بروضِـــها وردًا وشـــوكًا وذُقـــتُ بكأســـها شُـــهْدًا وصـــابا

فلـــم أرَ حُكـــم اللهِ حُكمًـــا ولم أرَ دونَ بـــــــــاب اللهِ بابا

على أن هذا الشاعرَ الراسخَ العقيدة، الصادق الإيمان، لم يُسئْ إلى أحدٍ في عقيدته؛ لأن مبدأه كان: «المسلم مَن سلم

الناسُ من يدهِ ولسانه.» وهكذا تَرَون أُدباء المسيحيين والإسرائيليين يتغنون بشعره الإسلامي، ويطربون له طرب المسلمين أنفسهم، وقد يتناول أدقَّ الموضوعات من هذا القبيل، ولكنَّه يتناولها بلمس الحرير فلا يؤلم ولا يجرح، كوصفه كنيسة آيا صوفيا التي صارت مسجدًا:

كنيسةٌ صارت إلى مسجد — هديةُ السيّدِ للسيّدِ

ووصفهِ مدينةَ القسطنطينية وقد خرجت من يدِ الروم إلى يد بني عثمان:

أدارَ محمدٍ وتُراثَ عيسى — لقد رضياكِ بينهما مُشاعا

فهل نَبَذَ التعصُّبَ فيكِ — قومٌ يَمُدُّ الجهلُ بينهما نِزاعا

وهكذا يحترم الأديانَ ويُجلُّ كُتبها:

أرسلتَ بالتوراةِ موسَى مرشدًا — وابنَ البتولِ فعلَّم الإنجيلا

وفَجَرتَ يَنبوعَ البيانِ محمدًا — فسَقى الحديثَ وناوَلَ التنزيلا

وإذا وقع العيدانِ – عيد المسلمين وعيد المسيحيين – في يومٍ واحدٍ حيَّاهما معًا أجملَ تحيَّة:

العــامُ أقبــل قــم نُحــيِّ هــلالا — كالتــاجِ في هــامِ الوجــودِ جــلالا

عيــدُ المســيحِ وعيــدُ أحمــدَ — أقــبلا يتبــاريان وضــاءَةً وجمــالا

مــيلادُ إحسَــانٍ وهِجــرةُ ســؤدُدٍ — قــد غَــيَّرا وجــهَ البســيطةِ حــالا

**وإذا رأى اعتداءً من دولةٍ من دول الصليب، فإنه لا يُثير الأحقادَ الدينية القديمة، بل يُبرِّئُ الدينَ، ويُنجِي باللائمةِ على الذين لا يتَّبعون وصاياه:**

تــبرَّأ عيسَــى مــنهمُ وصِــحابُهُ — أأَتبــاعُ عيسَــى ذي الحنــانِ جفــاةُ؟

**أو يعاتِبُ ألطفَ عتاب ويمهِّد له أجمل تمهيد:**

عيسَــى ســبيلُكَ رَحمــةٌ ومحبَّــةٌ — في العــالمين وعِصــمةٌ وسَــلامُ

مــا كُنــتَ سـفَّاكَ الـدماءِ ولَا امـرءًا — هــانَ الضــعافُ عليــه والأيتــامُ

يا حامــلَ الآلامِ عــن هــذا الــورى — كَثُــرَت عليــه باسمــك الآلامُ

أنــتَ الــذي جعــلَ العبــادَ جمــيعَهم — رَحِمًــا وباسمِــكَ تُقطَــعُ الأرحــامُ

البغــيُ في ديــنِ الجميــعِ دَنيَّــةٌ — والســلمُ عهــدٌ والقتــالُ ذِمــامُ

**أمَّا الحروبُ الدينيَّة التي مزَّقت الإنسانية في حقبات مُختلفة فمرجِعها إلى الضلال، والدين ينفضُ يده منها.**

لــولا ضــلالٌ سَــابقٌ لم يَقُــمْ مــن      أجلـــــكَ الخَلـــــقُ ولم يَقعُـــــدِ

فكـــــلُّ شــــرٍّ بيــــنهم أو أذًى      أنــت بــراءٌ منــهُ طُهــرُ اليــدِ

**ومن كانت هذه آراؤه في الأديان ومُوحيها فلا عجَبَ أن يكونَ في طليعة الداعين إلى اتحاد العنصرين المكوِّنين للأمة المصرية:**

أعهــــدتنا والقــــبط إلَّا أُمَّـــــةً      لــــلأرضِ واحــــدةً تــروم مرامــا

نُعلِــي تعــاليمَ المســيح لأجلِهــم      ويــــوقِّرون لأجلنــــا الإســــلاما

الــــدين للــــدَّيان جَــــلَّ جلالُــــه      لــو شــاءَ ربــك وحَّــد الأقوامــا

هــــذي قبــــورُكم وتلــــك قبــــورُنا      متجــــاورينَ جماجمًــــا وعِظامــــا

فبحُرمــةِ المــوتى وواجــبِ حقِّهــم      عيشــوا كمــا يقضِــي الجــوارُ كرامــا

**وهو يُدلِّل على وجوبِ هذا الاتحاد باسم الوطن:**

ألم تــكُ مصــرُ مهــدَنا ثم لحــدَنا      وبينهمــــا كانــــت لكــــلٍّ مغانيــــا

ألم نـكُ مـن قبـلِ المسيحِ بـن مـريم | وموسَـى وطَـهَ نعبُـدُ النيـلَ جـاريا
فهـلَّا تسـاقينا علـى حُبِّـهِ الهـوَى | وهـلَّا فـديناه ضـفافًا ووادِيا

بل باسم الدين نفسهِ:

إنمـا نحـنُ مسـلمين وقبطًـا | أمَّـةٌ وُحِّـدت علـى الأجيـال
وإلى اللهِ مـن مشـى بصـليبٍ | في يديـهِ ومـن مشـى بهِـلالِ

ومِن نِعم الله على مصر أن هذا الاتحادَ قد توثق فيها على وجهٍ لم يتوثَّق على مثاله في قُطر آخر، فثارت البلاد تطالب باستقلالها تحت رايةٍ رُسِم عليها الهلالُ معتنقًا الصليب، وفي ذلك يقول فقيدُنا:

مـزَّقتُم الـوهمَ وألفـتمُ | أهِلَّـةَ اللهِ علـى صُـلْبِهِ
حـتى بَنيـتم هَرَمًـا رابعًـا | مـن فئـةِ الحـقِّ ومـن حزبِـه

وهو القائل كذلك في الصليب والهلال:

جبريـلُ أنـت هُـدَى السـما | ءِ وأنـتَ برهـانُ العنايَـهْ
ابسُـطْ جناحَيـكَ اللذَيـ | ـنِ هُمـا الطهـارةُ والهدايـهْ

وزدِ الهـــلالَ مـــن الكـــرا ... مـــةِ والصـــليبَ مِـــنَ الرعايـــةْ

فَهُمـــا لربِّـــكَ رايـــةٌ والحـــربُ ... للشـــــيطانِ رايـــــةْ

**وله في كلِّ ذلك حكمةٌ بالغة وهي:**

الـدينُ للهِ مـن شـاءَ الإلـهُ هَـدَى ... لكـلِّ نفـسٍ هـوًى في الـدين يعنيهـا

مـا كـان مختلـفُ الأديانِ داعيـةً ... إلى اخـتلافِ الـبرايا أو تَعادِيهـا

الكتْـبُ والرسْـلُ والأديانُ قاطبـةً ... خـزائنُ الحكمـةِ الكـبرى لوَاعيهـا

محبَّـــةُ اللهِ أصـــلٌ في مَراشـــدِها ... وخَشـــيةُ اللهِ أُسٌّ في مبَانيهـــا

وكـــلُّ خـــيرٍ يُلقَّـــى في أوامرِهـــا ... وكـــلُّ شـــرٍّ يُـــوقَّى في نَواهيهـــا

تَسَـامُحُ الـنفسِ معـنًى مـن مروءتِهـا ... بـــل المـــروءةُ في أسمـــى مَعانيهـــا

**هذا مثالٌ من الأنغام الفخمة التي استخرجها «شوقي» من وتر الدين، وهي نغماتٌ ذات أجنحةٍ مصفَّقة تحملها على تموُّجات العواطف إلى الملايين من الناس، فيتراجع صداها في الصدور حيث تستقرُّ بردًا وسَلامًا، وهل تعرفون شعراءَ كثيرين وُفِّقوا لما وفِّق له شوقي؛ إيمانًا صادقًا، ورأيًا صائبًا، وحكمةً رائعة، وذوقًا سليمًا، مع جزالةٍ في اللفظ وفخامة في الأسلوب؟**

## وتَر الوطن

أمَّا وترُ الوطن فلم يكن بأقلَّ براعة وحذقًا في النقرِ عليه، فوطنياتُ شوقي خليقةٌ بأن تُجمع وتدرَّس في المدارس لتنشئة الطلبة على حب الأوطان، فهو يقدس الوطن تقديسًا، ويتكلم عن العاطفة الوطنيَّة كعقيدة دينية، أليس حبُّ الوطن من الإيمان، وهو الرجلُ المؤمن كما رأينا؟

أيا وطني لَقِيتُك بعد يأسٍ ... كأنِّي قد لَقِيتُ بك الشبابا

ولو أنِّي دُعيتُ لكنتَ دِيني ... عليهِ أُقابلُ الحتمَ المُجابا(١٣)

أُديرُ إليك قبلَ البيتِ وجهي ... إذا فُهتُ الشَّهادةَ والمَتابا

أنزَلَ الوطنَ منزلة الدين في هذه الأبياتِ، وفي غيرها:

وسَلا مصرَ هل سلَا القلبُ ... عنها أو أسَا جرحَهُ الزمانُ المؤَسِّي

كلَّما مرَّتِ الليالي عليهِ رقَّ، ... والعهدُ في الليالي تُقَسِّي

وطني لو شُغِلتُ بالخُلد عنهُ ... نازَعتْنِي إليهِ في الخُلدِ نفسي

وهل يُستغرَب ممَّن ينبضُ قلبه بهذه العاطفة الوطنية أن يجعل مصر كعبة أشعاره؟

وإنِّي لَغِرّيِـــدُ هـــذي البطـــاحِ تَغـــذَّى جَناهـــا وسَلسَـــالَها

تـــرَى مصـــرَ كعبـــة أشـــعارِهِ وكـــلِّ مُعلَّقـــةٍ قالهـــا

**ويكادُ يتغزلُ بوطنه في كل موضوعٍ يعالجه، حتى في خمريَّاته، فبينما ينشد في العيد طربًا؛ رمضانُ ولَّى، هاتها يا ساقي، إذ به يتجهَّم لذكرى وطنه:**

وطـــني أسِـــفتُ عليـــكَ في عيـــدِ المَلا وبكيتُ مِنْ وجدٍ ومن إشفاقِ

لا عيـــدَ لي حـــتى أراكَ بأُمَّـــةٍ شمَّـــاءَ راويـــةٍ مـــن الأخـــلاقِ

**نعم، إنَّ حبَّ الوطن سجيَّةُ كلِّ حرٍّ:**

وللأوطـــانِ في دم كـــلِّ حُـــرٍّ يَـــدٌ ســـلفت ودَيـــنٌ مســـتحق

**يقول ذلك ويُعيدُه:**

ولقد صدقتم، هذهِ الأرضُ الهوى والحـرُّ يَصـدُقُ في هـوى أوطانِـهِ

**ولكنَّ مصرَ أحرى من سواها من الأوطان بهوى أبنائها:**

إن الـــذي قســـمَ الـــبلادَ حبـــاكمُ بلـــدًا كأوطـــانِ النجـــومِ مجيـــدا

قـــد كـــان والـــدنيا لحـــودٌ كلُّهـــا للعبقريَّـــةِ والفنـــونِ مُهـــودا

**واسمعوه بعد ذلك يُعدِّد محاسن هذا الوطن في مختلف قصائده مهما تنوعت موضوعاتها، ويُبدِع في وصف آثار مصر ما شاء الإبداع، سواءٌ تكلَّم عن الهياكل وما فيها من مدهشات الفن:**

شابَ من حولها الزمان وشابت    وشبابُ الفنونِ ما زال غَضَّا

ومحاريب كالبروجِ بَنَتْها عَزَمَاتٌ    من عزمة الجنِّ أَمضى ...

**أم تكلَّم عن أهرامِ مصر:**

لك كالمعابد روعةٌ قُدسيةٌ    وعليكِ روحانيَّةُ العبَّادِ

أسِّستِ من أحلامِهم بقواعد    ورُفعتِ من أخلاقِهم بِعمادِ

قُمْ قَبِّلِ الأَحجارَ والأَيدي    التي أخذتْ لها عَهدًا من الآبادِ

وخُذِ النبوغَ عن الكنانةِ إنها    مهدُ الشموسِ ومسقط الآرادِ[١٤]

**أو عن أبي الهول:**

كأنَّ الرمالَ على جانبيـ    ـك وبين يديكَ ذنوبُ البَشرْ

كأنَّك فيها لِواءُ القضا    ءِ على الأرضِ أو ديدبانُ القَدرْ

أو عن النيل:

مــن أيِّ عهــدٍ في القــرى تتــدفَّقُ ... وبأي كــفٍّ في المــدائن تُغــدِقُ

ومــن الســماءِ نزلــتَ أم فُجِّــرتَ ... مــن عُليـا الجِنـان جـداولًا تترقـرقُ

وبأي نَــولٍ أنــت ناســجُ بــردةٍ ... للضَّــفتين جديــدُها لا يخلُــق ...

لي فيـك مَـدْحٌ لـيس فيـه تكلُّـفٌ ... أمــلاهُ حُــبٌّ لــيس فيــه تملُّــقُ

ولكن ما له وللتفصيل، فكلُّ ما قام في مصرَ عجيبٌ بخلوده:

أمَّــةٌ للخُلــدِ مــا تبــني إذا مــا ... بــنى النــاسُ جميعًــا للعفــاءِ

تَعصِمُ الأَجسامَ من عادي البِلى وتقي الآثارَ من عادِي الفناءِ

ومجال الفخر بتاريخ مصر، وما تعاقبَ فيها من جُسام الحوادث، لا يقلُّ اتساعًا عن مجال الفخر بآثارها الخالدة:

واخفِضْ جناحَك في الأرضِ التي حملتْ ... موسَى رضيعًا وعيسى الطهرِ منفطما

وأخرجــتْ حكمــةَ الأجيــال خالــدةً ... وبيَّنـتْ للعبـادِ السـيفَ والقلمـا ...

هـذا فضـاءٌ تُلِـمُّ الـريحُ خاشـعةً بـهِ، ... ويمشِــي عليــهِ الــدهرُ محتشــما

وعلماؤها الأعلامُ هم الذين نشروا نورَ التمدين في العالم:

فكــانوا الشُّــهبَ حــينَ الأرضُ ليــلٌ وحــين النــاسُ جــد مضــلِّلينا

مشــتْ بمنــارهم في الأرضِ رومــا ومــن أنــوارِهم قبسَــتْ أثينــا

وأين تاجُ الملوكِ وعرشهم من تاج ملك مصر وعرشه:

باهِ الملوك بهذا التاجِ إنَّ لهُ في جوهرِ الشــمسِ لا في المــاس مُنْتَسَــبا

وتِهْ عليهم بعرشٍ غير ذي لِدَةٍ من عهد «خوفو» على الماءِ استوى عَجَبا

لــو اســتطعنا لَــزِدْنا فيــهِ قائمــةً ولاتخــذنا لــه أمَّ السُّــها عتَبَــا

وهو على هذا النحو يبسطُ تاريخَ مصر استفزازًا للهمم:

وأنا المحتفِــي بتــاريخ مصــر مــن يَصُــنْ مجــدَ قومِــه صــانَ عِرْضــا

لم تَمُــتْ أُمَّــةٌ ولا باد شــعبٌ أقرضــوا الــذكرَ والأحاديــثَ قَرضــا

أحبَّ هذا الوطن في ماضيه حبًّا جمًّا، وقد أحبَّه في حاضره حبًّا أشدَّ، لذلك ما فتئ يدعو إلى الجدِّ والنشاط في مختلف ميادين العمل لاستعادة ذلك المجد الباهر:

فــاض الزمــانُ مــن النبــوغ فهــلْ فــتًى غَمَــرَ الزمــانَ بعلمــهِ وبيانــهِ

أيـن التجـارةُ وهـي مِضـمار الغِـنَى؟ أينَ الصـناعةُ وهي وجهُ عَنانـهِ؟[١٥]

أيــن الجــوادُ علــى العلــوم بمالِــه؟ أيـــن المشـــارِكُ مصـــرَ في فدَّانـــهِ؟

أيـــن الزراعـــةُ في جنـــانٍ تحـــتكم كخمائِـــل الفـــردوس أو كجنانـــهِ؟

مرَّت على مصر حِقبة من الزمن كانت مقاليدُ أمورها في غير يد أبنائها فصارت إلى غير ما يريده أبناؤها البررة المخلصون:

أرى وطنًـــا تحـــيَّر ناشـــئوهُ فمـــا يَجِـــدون مـــن عمـــلٍ قِوامـــا[١٦]

فـــلا أُسُـــسُ التجـــارةِ فيـــه قـــرَّتْ ولا رُكـــنُ الصـــناعةِ فيـــه قامـــا

مـــــدارسُ لم تُهَيِّــــئْهم لكســــبٍ ولم تـــبنِ الحيـــاةَ ولا النظامـــا

ولذلك صارت حالة أبناءِ الذين علَّموا الدنيا الفنَّ والصناعةَ إلى ما يؤلم النفسَ:

تَجِــدُ الــذين بــنى المســلَّةَ جَــدُّهم لا يُحسِـــنونَ لإِبـــرةٍ تشـــكيلا

والآن فلننظر كيف يُريد هذا الوطن.

يريده قبل كلَّ شيءٍ متحدًا:

إلامَ الخلـــفُ بيـــنكمُ إلامـــا وهــذي الضــجَّةُ الكــبرى علامــا؟

وفـــيمَ يكيـــدُ بعضُـــكمُ لـــبعضٍ وتُبـــدون العـــداوةَ والخصـــاما؟

وأيــن الفــوزُ؟ لا مصــرُ اســتقرَّت علــى حــالٍ ولا الســودانُ دامــا

**فلا قوَّة إلَّا بالاتحاد:**

صـوتُ الشـعوبِ مـن الـزئيرِ مُجمَّعًا فــإذا تفــرَّق كــان بعــضَ نبــاحِ

**يُريدُ هذا الوطنَ حرًّا، طليقًا من القيودِ التي قعدت به عن السيرِ إلى الأمام:**

يا قـــومِ، هـــذا زَمَـــنٌ قـــد رمـــى بالقيـــدِ واســـتكبرَ عـــن سَـــحْبِه

لـــو أَنَّ قيـــدًا جـــاءَهُ مـــن عـــلٍ خَشِـــيتُ أن يأبَى علـــى ربِّـــهِ

**يأبى هذا القيدَ ولو كان من الجُمان:**

شُـــهَدُ[17] الحيـــاةِ، مشـــوبةً بالـــــرقِّ، مثـــــلُ الحنظـــــلِ

والقيـــدُ لـــو كـــان الجُمـــا نَ مُنظَّمًـــــا لم يُحمَـــــلِ

**وإذا هنَّأ المعتقَلين السياسِيين بفكِّ اعتقالهم عاد إلى حريَّة الوطن فقال:**

وَجَـدَ السـجينُ يـدًا تُحطِّـمُ قيـدَهُ مـــن ذا يُحطِّـــمُ للـــبلادِ قيـــودا؟

وكيف الوصولُ إلى تحقيق هذه الأُمنية؟

هناك فكرتان أساسيتان تعودان في شعره، بل قاعدتان أُولَيان يريد أن يبني عليهما إنهاضَ الوطن وإسعادَه: الأولى العلُم والقوَّة، والثانية الدستور والشُّورى، وله في كلا المعنيين ما لا نعرف مثله لشاعرٍ قبله:

إنْ سرَّك الملكُ تَبنيهِ على أُسُسٍ ... فاستنهِض البانِيَين: العلم والأدبا

وارفعْ لها من حبالِ الحقِّ قاعدةً ... ومُدَّ من سببِ الشُّورى له طُنُبَا

وترى هاتين الفكرتين مفصَّلتين في شتى منظوماتِه.

أما العلمُ والقوَّة فحيث يقول:

المُلْكُ والدُّولاتُ ما يبني القنا ... والعلمُ، لا ما ترفعُ الأحلامُ

فالسَيف والقلم سياجُ الوطن ومظهرُ شَرَفه وعزِّه:

ومن شَرَفِ الأوطانِ أن لا يفوتَها ... حُسامٌ مُعِزٌّ، أو يراعٌ مُهذِّبُ

فالحسامُ المُعِزُّ هو الذي يصون الحقوق:

فَقُلْ لبانٍ بقولٍ رُكنَ مملكةٍ على ... الكتائبِ يُبنَى الملكُ لا الكتُبِ

لا تلتمسْ غَلبًا للحقِ في أُممٍ الحقُّ ... عندهمُ معنًى من الغَلَبِ

لا خيرَ في منبرٍ حتى يكونَ لهُ عُودٌ مـن السُّـمْرِ أو عُـودٌ مـن القُضُـبِ

ومـا السـلاحُ لقـومٍ كـلُّ عُـدَّتِهم حتى يكونـوا منَ الأخـلاقِ في أُهُـب

واليراعُ المهذِّبُ هو دواءُ النفوس:

تَـرْكُ النفـوسِ بـلا علـمٍ ولا أدَبٍ تَـرْكُ المـريضِ بـلا طـبٍّ ولا آسِ

والجهلُ مضيعةُ الحقوق:

بالعلـمِ تمتلـكُ الـدنيا ونَضـرتَها ولا نصـيبَ مـن الـدنيا لجهَّـالِ

لذلك تراه يُقدِّس مُهمَّة المعلِّم، وإذا كان بسمرك قد قال بعد حرب السبعين: «غلبنا جارتنا بمعلِّم المدرسة.» فإن شاعرَنا يقول:

أعلمـتَ أشـرفَ أو أجـلَّ من الذي يَبني ويُنشِئُ أنفسًا وعقولا؟

ثمَّ يجمعُ بين القوة والعلم فيقول:

ومـا الحكـم أن تنقضِـي دولـةٌ وتُقبِـلَ أُخـرى وأعوانُهـا

ولكـن علـى الجـيشِ تقـوَى الـبلا دُ وبالعلـم تشـتدُّ أركانُهـا

فـأين النبـوغُ وأيـن العلـو مُ وأيـن الفنـونُ وإتقانُهـا

أمَّا الشُّورى وأمَّا الدستور فيكاد لا يقصدُ قصيدةً إلَّا جعل لهما منها النصيبَ الوافر؛ لأنَّ:

شـرَّ الحكومـةِ أن يُسَـاس بواحـدٍ | في الملـكِ أَقـوامٌ عِـدادُ رمالِـه

ولذلك يقولُ مخاطبًا توتنخ أمون:

زمـانُ الفـردِ يا فرعـونُ ولَّى | ودَالـتْ دولـةُ المتجبِّرينـا

وأصـبَحَتِ الرُّعـاةُ بكـلِّ أرضٍ | علـى حُكـمِ الرعيَّـةِ نازلينـا

فـؤادُ أجـلُّ بالدسـتورِ دُنيـا | وأشـرفُ منـكَ بالإسـلامِ دِينـا

فالدستور هُدى الحكام ومفخرةُ الملوك:

وجـواهرُ التيجـانِ مـا لم تُتخَـذْ | مـن معـدنِ الدسـتورِ غـيرُ صِـحاحِ

وخـذوا بنـاءَ الملـكِ عـن دسـتوركم | إنَّ الشـراعَ مثقِّـفُ المـلَّاحِ

ولذلك يُهيب بطلاب العلم أن:

كونـوا سـياجَ العـرشِ، والتمسـوا | لـهُ نصـرًا مـن الملـك العزيـزِ مـؤزَّرا

وتفيئـوا الدسـتورَ تحـتَ ظلالِـه | كنَفًـا أهـشَّ مـن الـرياضِ وأنضـرا

**بل إنَّ الشُّورى من الدين: قال يخاطِبُ سلطانَ تركيا منذ ربع قرن:**

| | |
|---|---|
| الــــرأيُ رأيُ أمـــير المـــؤمنين إذا | حـارت رجـالٌ وضـلَّت في مرائيهـا |
| وإنمـا هـــي شُــورى اللهِ جـاءَ بهـا | كتابُــهُ الحـــقُّ يُعليهـــا ويُغليهـــا |

**هكذا أحبَّ شوقي مصرَ في ماضيها المجيد، وفي حاضرها المتوثِّب، حبًّا يقرب من العبادة، وهو يحبُّها كذلك في مستقبلها، أي في شبَّانها، فهم معقدُ آمالها ومعقلُ رجائِها:**

| | |
|---|---|
| يا شـــــباب الـــــديارِ، مصـــــرٌ | إلـــيكم ولـــواءُ العـــرينِ للأشـــبالِ |
| كلمـــا روِّعَـــتْ بشُـــبهةِ يأسٍ | جعلـــتكم معاقــــلَ الآمــــالِ |

**وهم أبهى حلاها:**

| | |
|---|---|
| وطَـــنٌ يَـــرِفُّ هـــوًى إلى شُـــبانهِ | كـــالروضِ رقَّتُـــهُ علـــى رَيْحانـــهِ |
| هـــم نظـــمُ حِليتـــهِ وجـــوهرُ عِقـــدِهِ | والعِقــــدُ قيمتُــــهُ يتــــيمُ جُمانــــهِ |
| قـــلْ للشـــبابِ زمـــانكم متحـــرِّكٌ | هـل تأخـذون القسـطَ مـن دورانـهِ؟ |

**فلا بدَّ من مجاراة الزمان في دورانه، ولا بدَّ من الإقدام والعمل:**

تَحـــرَّكْ، أبا الهـــولِ، هـــذا الزمـــانُ          تحـــرَّكَ مـــا فيـــه حـــتى الحجـــرْ

**فشعارُ هذا العصر الإقدام:**

قـــلْ للشـــبابِ بمصـــرٍ: عصـــرُكمْ          بَطـل بكـلِّ غايـةِ إقـدامٍ لـهُ ولـعُ

أُسُّ الممالـــكِ فيـــه همـــةٌ وحجـــى          لا الترُّهـــاتُ لهـــا أُسٌّ ولا الخِـــدَعُ

**يُريد شبَّانَ مصر طموحين إلى المعالي لا خانعين قانعين:**

فَغَـــالي في بنيـــكِ الصـــيد غـــالي          فقـــد حُـــبَّ الغلـــوُّ إلى بنينـــا

شـــبابٌ قُنَّـــعٌ لا خـــيرَ فـــيهم          وبُـــورِكَ في الشـــبابِ الطامحينـــا

**ولكنه يريدهم مستمسكين بالإنصاف:**

ربُّـوا علـى الإنصـاف فتيـانَ الحمـى          تجـــدوهمُ كهـــفَ الحقـــوق كهـــولا

**متخلقين بالكرم والصفح:**

كـــرمٌ وصـــفحٌ في الشـــباب وطالمـــا          كَـــرُمَ الشـــبابُ شمـــائلًا وميـــولا

قومـوا اجمعـوا شُـعبَ الأبـوَّةِ وارفعـوا          صـــوتَ الشـــبابِ محبَّبًـــا مقبـــولا

على أن يكونوا مع ذلك معتصمين بحبل الله، فصوتهم عند الله مستجاب:

شــبابَ النيـــلِ إنَّ لكـــم لصـــوتًا ملـــبَّى حـــين يُرْفَـــعُ مســـتجابا

فهـــزُّوا العـــرشَ بالـــدعواتِ حـــتى يُخَفِّـــفَ عـــن كنانتـــهِ العـــذابا

وهل في استنهاض الشباب أبلغُ وأحرُّ من هذه النغمة المنبعثة من سُويداء قلبهِ:

يا شـــــبابَ الغـــــدِ، وابنـــــايَ الفِـدَى لكـمُ، أكـرِمْ وأعـزِزْ بالفِـداءِ

هـــل يمـــدُّ اللهُ لي العـــيشَ، عسَـــى أن أراكـــم في الفريـــقِ السُـــعداءِ

وأرى تاجَكُـــــمُ فـــــوقَ السُّـــــهى وأرى عرشـــــكمُ فـــــوقَ ذُكـــــاءِ

مَن رآكم قال مصرُ استرجعت عزَّها في عهدِ «خوفو» و«مناءِ»

إنمـــــا مصـــــرُ إلـــــيكم وبكـــــم وحقـــــوقُ الـــــبرِّ أَولى بالقضـــــاءِ

عصـــــركم جـــــرٌّ ومُســـــتقبلُكم في يمـــــينِ اللهِ خـــــيرِ الأُمَنَـــــاءِ

لا تقولـــوا «حطَّنـــا الـــدهرُ» فمـــا هـــو إلَّا مـــن خيـــالِ الشـــعراءِ

هـــل علمـــتم أُمَّـــةً في جهلِهـــا ظهــرَتْ في المجــدِ حسَــناءَ الــرداءِ

فخـــذُوا العلـــمَ علـــى أعلامـــهِ واطلبــوا الحكمــةَ عنــد الحكمــاءِ

واقـــرءوا تاريخكـــم واحتفظـــوا بفصـــيح جـــاءَكم مـــن فُصـــحاءِ

واطلبوا المجدَ على الأرضِ، فإن هي ضاقتْ فاطلبوه في السماءِ

**هذه الأبيات قالها في سنة ١٩١٤ وهي تُعبِّرُ عن الأملِ المنشود، فاسمعوه في سنة ١٩٢٤ يتغنَّى بالأمل المحقَّق:**

يا مصــرُ أشــبالُ العــرينِ ترعرعــتْ ومشَـتْ إليـكِ مـن السـجونِ أُسـودا

قـالوا: أتـنظِمُ للشـبابِ تحيَّـةً تبقَـى علـــى جيـــدِ الزمـــانِ قصـــيدا

قلـــتُ: الشـــبابُ أَتمُّ عِقـــدِ مـــآثرٍ مـــن أن أزيـــدَهمُ الثنـــاءَ عُقـــودا

قَبلــتْ جهــودَهمُ الــبلادُ وقبَّلــتْ تاجًـــا علـــى هامـــاتِهم مَعقـــودا

**ترون من هذا كيف أحبَّ مصر في مستقبلها، أي في شبابها، وكأني به يعتذر إلى هذا الجيل الآتي عن الجيل الحاضر:**

إن أســأْنا لكـــمُ أو لم نُسِـــئْ نحـــنُ هَلكَـــى فلكـــم طـــول البقـــاءِ

كما يعتذر إلى الجيل الحاضر عن الجيل الماضي:

هــذا جنــاهُ علــيكمُ آباؤكــم صــبرًا وصــــــفحًا فالجُنــــــاةُ كِــــــرامُ

فإن ما فينا من نقصٍ يُمهِّد العذرَ للمتقدمين:

فـــإنَّا لم نُـــوَقَّ الـــنقصَ حـــتى نطالـــبَ بالكمـــالِ الأولينـــا

فهل جاد وتَرُ الوطن في قيثارة الشعر بأعلى من هذه الأنغامِ وأغلى منها؟

وهل نبض القلبُ بأحرَّ من هذه الدعوات لإذكاءِ نار الوطنية واستثارة الروح القومية؟

وإذا كانت مصر، وآثار مصر، ومدنية مصر، وعرش مصر، وشبان مصر، تكادُ تكون القرارَ في جميع ألحانه، فإنه ما نسي ذلك الشرق العاثر:

ومــا الشــرقُ إلَّا أســرةٌ أو قبيلــةٌ تلــمُّ بنيهــا عنــد كــلِّ مصــابِ

وما غمط حقَّ قُطرٍ من الأقطار التي تربطها بمصر رابطة من روابط الجوار:

رُبَّ جــارٍ تلفَّتــتْ مصــرُ تُوليــ ــهِ ســؤالَ الكــريمِ عــن جيرانِــهْ

أو روابط اللغة:

ونحن في الشرقِ والفصحى بنو رَحِمٍ ونحـــن في الجـــرح والآلام إخـــوانُ

أو روابط الدين:

شـعوبك في شـرقِ الـبلادِ وغربِهـا كأصـحابِ كهـفٍ في عميـقِ سُـباتِ

وهـــذا زمـــانٌ أرضـــهُ وسمـــاؤه مجـــالٌ لمقـــدامٍ كبـــيرِ حيـــاةِ

فقـــلْ: ربِّ، وفِّـــق للعظـــائم أمـــتِي وزيِّـــنْ لهـــا الأفعـــالَ والعزَمـــاتِ

حتى غمر شعرُه هذا الشرقَ فكان شريكهُ في أفراحه ومواسيَهُ في أتراحِه:

كـان شـعري الغنـاءَ في فـرح الشـر قِ وكـــانَ العـــزاءَ في أحزانِـــهْ

فيتألَّم لحالة هذا الشرق:

وانظـر الشـرق كيـف أَصـبح يهـوِي وانظـرِ الغـربَ كيـفَ أصـبح يصـعدْ

وتأمَّـــلْ ممالكًـــا وبـــلادًا لمـــسَ الـــــدهرُ عقـــــدَها فتبـــــدَّدْ

كنـــتَ تحميـــه والســـيوفُ عـــوارٍ مـــن لـــهُ اليـــومَ بالحســـامِ المجـــرَّدْ

ويتوجع لتخاذُل أبنائه واستكانتهم:

متفكِّكــون فمــا تضـــمُّ نفوسَـــهم ثقـــةٌ ولا جَمَـــع القلـــوبَ صـــفاءُ

رقـــدوا وغـــرَّهمُ نعـــيمٌ باطـــلٌ ونعـــيمُ قـــوم في القيـــود بـــلاءُ

لا سيما وهو يقابل بين الماضي والحاضر:

مـــن مشـــرقِ الأرضِ الشـــموس تظـاهرَتْ مـا بالُ مغربِهـا عليـه أُدِيـلا

ولقد نظم في بغداد ودمشق ولبنان، مهنئًا أو معزيًّا أو مواسيًا، ما قد يكون قصَّر عنه شعراءُ العراقِ أو الشامِ أو لبنان، ولكنَّه في عواطفهِ الفيَّاضةِ على هذه البلاد الشقيقة لا ينسَى مصر:

نحنـو علـيكم ولا ننسـى لنـا وطنًـا ولا ســـريرًا ولا تاجًـــا ولا عَلَمَـــا

أحبَّ وطنَه ومواطنيه، وحبَّبه وحبَّبهم إلى الجميع:

وزينـبُ إنْ تاهَـتْ وإن هـي فـاخرتْ فمـــا قومُهـــا إلَّا العشـــيرُ المحبَّـــبُ

ومن أجلِ كلِّ هذا اشتركتْ جميعُ البلادِ العربيةِ بفجيعةِ مصرَ بابنها البار، وعقدت له حفلات التأبين والرثاء كأنَّ المصاب مصابها، وها هي اليوم قد أوفدت أنجبَ أبنائها، من العراق، إلى فلسطين وشرق الأردن، إلى الشام ولبنان؛ لحمل عزاء الملايين من الناطقين بالضاد إلى إخوانهم أبناء مصر؛ لأنَّ شوقي الذي تغنَى

بشعره، وهو شاعرُ الإسلام، أبناءُ سائر الأديان، يدَّعيه، وهو شاعر مصر، أبناءُ سائر الأوطان، فكان أعظم دعاية حية لمصر في حياته وفي مماته، فحقَّ له أن يزهوَ ويقول كما قال:

رُواةُ قصـــــــائدي فاعجــــــبْ لشــعرٍ بكــلِّ محلَّــةٍ يرويــهِ خَلْــقُ

## وتَرُ الحكمة

وهناك وَترٌ ثالثٌ شدَّه أميرُ الشعراء إلى قيثارته كما شدَّه غيره من الشعراء، عنيتُ به وتر الحِكمة، أو الاجتماعيات، وله فيه أيضًا الشيء الكثير، ولا عجبَ أن تكثر الحكم والنصائح وضروبُ الإرشاد في شعر من تغنَّى بالدين والوطن، وقد أشار شوقي نفسه إلى ذلك، بل رأى الحكمة فنًّا من فنون الشعر الرئيسية:

نصــيحةٌ ملؤهــا الإخــلاصُ صــادقةٌ والنصـــحُ خالصُـــهُ دِيـــنٌ وإيمـــانُ

والشـعرُ مـا لم يكـنْ ذكـرى وعاطفـة أو حكمـــةً، فهـــو تقطيـــعٌ وأوزانُ

وقد امتاز بما استخرجَهُ من هذا النوع أيضًا وطَبَعهُ بطابعهِ الخاص، شأنه فيه شأنُهُ في الألحان التي استنبطها من سائر الأوتار.

فقد امتازت حكمه واجتماعياتُه بسهولة معناها ورُواءِ مبناها، فجمعت إلى أُبَّهَةِ الحكمة وجلالتها عذوبةَ الحياة وطلاوتها،

ففلسفته في الحياة فلسفةٌ باسمةٌ، لا عبوس فيها ولا تجهُّم، فهي الحكمةُ تحمل زهرًا، وهي فلسفةٌ هيِّنةٌ سهلة، لا تصعيب فيها ولا تعقيد، بل تبدو وضَّاحة المذهب، سهلة المطلب، لا يقصد منها إلَّا إلى العدل والوئام ومكارم الأخلاق.

يدعو إلى الإنصاف:

فهـو الـذي يبـنِي الطبـاعَ قويمـةً | وهـو الـذي يبـنِي النفـوسَ عـدولا
ويُقـيمُ منطـقَ كـلِّ أعـوجِ منطـقٍ | ويُريـــهِ رأيًا في الأُمـــورِ أصـــيلا

وإلى الصبر لإدراك المنى:

كـم صعَّبَ اليومُ من سهلٍ هممتَ | بهِ وسهَّلَ الغَدُ في الأشياءِ ما صَعُبا

وإلى العدل في تدبير الملك:

والعـدلُ في الـدُّولاتِ أُسٌّ ثابـتٌ | يُفـني الزمـانَ ويُنفِـدُ الأجيـالا

وإلى الرفق في سياسة الناس:

إن ملكـتَ النفـوسَ فـابغِ رضـاها | فلهـا ثـورةٌ وفيهـا مضـاءُ
يسـكنُ الـوحشُ للوثـوب مـن الأَسـ | ـرِ فكيـف الخلائـقُ العقـلاءُ

وإلى الثبات وتعاون الأجيال:

والنـــــاسُ باني بنـــاءٍ أو مُتمِّمُـــهُ		وثالـــثٌ يـــتلافَى منـــه مـــا انهـــدما

تعـــاونٌ لا يَحُـــلُّ المـــوتُ عُروتَـــهُ		ولا يُـــرى بيـــدِ الأرزاءِ منفصـــما

يقولُ بالتسليم لإرادة الله فهو صاحبُ المشيئةِ العليا:

ربِّ إنْ شـــئتَ فالفَضـــاءُ مضـــيقٌ		وإذا شـــئتَ فالمضـــيقُ فضـــاءُ

ولكنَّه يُندِّدُ بالاستسلام لخطوب الدهر:

لا تقولـــوا «حظُّنـــا الـــدهرُ»		فمـــا هـــو إلَّا مـــن خيـــالِ الشـــعراءِ

كما يُبرِّئُ القدر مما نحمِّله من نتائج إهمالنا وتهاوننا:

قـــال ناسٌ صـــرعةٌ مـــن قَـــدَرٍ		وقـــديمًا ظَلَـــم النـــاسُ القَـــدَرْ

يُنادي بوجوب تعليم المرأة وتربية الأسرة:

وإذا النســـاءُ نشـــأنَ في أُمِّيَّـــةٍ		رَضَـــعَ الرجـــالُ جهالـــةً وخمـــولا

لـــيس اليتـــيمُ مَـــنِ انتهـــى أبـــواهُ		مـــن هـــمِّ الحيـــاةِ وخلَّفـــاهُ ذلـــيلا

فأصـــابَ بالـــدنيا الحكيمـــةِ		منهمـــا وبحســـن تربيـــةِ الزمـــانِ بـــديلا

إنَّ اليتـــيمَ هـــو الـــذي تلقَـــى		لـــهُ أُمًّـــا تخلَّـــتْ أو أبًا مشـــغولا

**يرى السعادة في غير ما يراه الناسُ عادةً:**

فــإن الســعَادةَ غــيرُ الظهــو رِ، وغــيرُ الثــراءِ، وغــيرُ التَــرَفْ

**ويرى رأيَ عنترة الذي قال:**

لا يحملُ الحقدَ من تعلو بهِ الرتبُ ولا ينالُ العلى مَن طبعُهُ الغضبُ

**فيقول بالمعنى عينه:**

وإنَّ للمجــدِ آفــاتٍ إذا جُمِعَــتْ وجــدتَّها اثنتــين: الحقــدَ والغضــبا

**أمَّا الحسَدُ فلا يتجهُ إلَّا إلى الفضل:**

آيــــــــةُ الفضــــــــلِ أن تُعــــــــادَى وتحسَــــــــدْ

**وأمَّا الأخلاقُ فقد أكثر من ذِكرها والحثِّ عليها، فبها تحيا الأمم، وبها يسعد الأفراد، وله فيها بيتٌ لا نعرف له ضريعًا في كثرة الاستشهاد به: يوُرده الخطباء في خطبهم، ويضمنه الشعراءُ قصائدَهم، ويُردِّده الناسُ في أحاديثهم، بل إن مسرحًا من مسارحنا الوطنية اتخذه شعارًا له فنقشه بحروفٍ كبيرةٍ فوق الملعب:**

وإنَّمــا الأُمَــمُ الأخــلاقُ مــا بقيــتْ فــإنْ هُــمُ ذَهَبَــتْ أَخلاقُهــم ذهبــوا

وقد يُعيد هذا المعنى مرارًا لترسيخه في العقول وطبعه في النفوس، فيقول تارةً:

وإذا أُصيب القومُ في أخلاقِهم ... فأقِمْ عليهم مأتمًا وعَويلا

وتارةً:

وما السلاحُ لقومٍ كلُّ عدَّتهم ... حتى يكونوا من الأخلاقِ في أُهُبِ

ومرة أخرى:

تخلَّقِ الصفح تسعَدْ في الحياةِ بهِ ... فالنفسُ يُسعِدُها خُلْقٌ وَيُشقيها

فعليها تُبنَى الممالكُ وتشادُ:

على الأخلاقِ خطُّوا الملك ... وابنوا فليس وراءَها للعزِّ ركنُ

وبها دون سواها ترتقي الشعوب:

وليسَ بعامرٍ بنيانُ قومٍ ... إذا أَخلاقُهم كانت خرابا

وإذا هي سلمتْ فكلُّ شيءٍ سالم:

ولا المصائبُ إذ يُرمَى الرجالُ بها ... بقاتلاتٍ إذا الأخلاقُ لم تُصَبِ

**أمَّا طريقتُهُ في النصح والإرشاد فالملاينة والتلطف:**

آفَــةُ النصـــحِ أنْ يكـــونَ لجَاجًـــا وأذى النصـــحِ أن يكـــونَ جِهـــارا

**ولا سيما إذا كان النصحُ موجَّهًا إلى الشبان:**

قُـلْ للبنـين مقـالَ صـدقٍ واقتصـدْ ذرعُ الشـــبابِ يضـــيقُ بالنصَّـــاحِ

**ويجب أن يوجَّه النصحُ إلى العقل حينًا، وإلى القلب حينًا آخر:**

والنصـــــــحُ مـــــــتَّهَمٌ وَإِنْ نَثَرَتْـــــهُ كالـــــدرِّ الشـــــفاهْ

أُذنُ الفـــــــتى في قلبــــــهِ حينًــــا، وحينًـــــا في نُهَـــــاهْ

**ويقتبس غالبًا حكمَه ونصائحه من حوادث التاريخ:**

واقـــــرءوا آدابَ مَـــــنْ قَـــــبلَكم ربَّمـــا علَّـــم حيًّـــا مـــن غَبَـــرْ

**فالتاريخ أبو العبر، ولا سيما تاريخ مصر:**

إنَّ مصـــرَ روايـــةُ الـــدهرِ فـــاقرَأْ عـــبرةَ الـــدهرِ في الكتـــابِ العتيـــقِ

**أكتفي بهذا القدر من حِكمِه، ففيه وفي ما تقدَّم إيرادُه من هذا النوع في شعره الديني وشعره الوطني ما يغني عن الإسهاب وزياد التبسُّط؛ للدلالة على أنَّ الحكمة قد جاءت في تضاعيف قصائده**

بلا تصنُّع ولا تكلُّف في لفظها وفي معناها، فهو لا يتوخَّى فيها التعمُّق في التحليل ولا الغوص في ثنايا الفكر والنفس ليظفر بالحقائق، بل يتناولها مما يخطر ببال كل إنسان، وينطق به كل لسان، ثم ينثر دقائقها عفوًا في بيتٍ أو بيتين، أو في جملة اعتراضية أو شطرةٍ من بيت، فتجيء جليَّةَ القصد قريبة النفع، كأنها في روض شعره الثمرُ الشهي بين الزهر البهي، ويجيء شعره معها غذاءً للعقول وريًّا للنفوس، كما هو بهجةٌ للقارئ ونعمةٌ للسامع.

## الوتَر المصور

وهناك أيضًا وَترٌ طالما غنَّانا بما يطرب الأسماع، ويفتن الأبصار كذلك، كأنَّ نغماتِه تتحوَّل ألوانًا تصوِّر، هو وتر الوصف: وصف الأشياء ووصف الأشخاص.

رأى شـــوقي في حياتـــهِ كثـــيرًا ... وعـــرف كثـــيرًا فـــوعى كثـــيرًا.

رأى مصر وآثارها الخالدة، رأى أوروبا ومعالمها العامرة، رأى الشام وجبالها الشاهقة، عاشر السلاطين والملوك وطاف بين كثير من الأمم والشعوب.

وكأنَّ ما كان في عينيه من ارتجاج عصبي، جعلهما كالزئبق الرجراج، قد ساعده على أن يستجمع بلحظةِ عينٍ ما لم يره غيره،

فكان بنظره الجوَّال يتناول دقائق المرئيات فيستوعبها في حافظته، وما لم يره بأمِّ عينه نظر إليه بعين خياله؛ لمحةٌ عين أو لمحة قلب كانت تكفيه ليطبع في خاطره رسم الأشياء والأشخاص، ثم يجيء بكل ذلك وصفًا أخَّاذًا، وصورًا ضاحكة خلابة.

يطول بنا الوقوف عند كل ما وصف وصوَّر من آثار الطبيعة وآثار البشر؛ مصر وكل ما فيها، والأستانة، والبوسفور، وأيا صوفيا، وباريس، وغاب بولونيا، ودمشق، ولبنان، والهلال، والربيع، والمرقص ... إلخ، ولكنني أقتطف من ذلك، على سبيل المثال، بعضَ مقاطع يكادُ كلٌّ منها يكون صورةً شمسية أو لوحةً فنية دقيقة التفصيل، مستكملة الحسن، وهكذا يتحوَّل وحيُ الشعر ونغمُ الموسيقى ريشةً تصوِّر بالألوان، وهذه هي صلةُ النسب بين الفنون الجميلة، وهكذا يتحوَّل هذا الباب في ديوان شوقي متحفًا عامرًا ببدائع الرسم والتصوير.

هل زرتم هيكل أنس الوجود، ورأيتم مياه النيل قد كادت تغرقه ...؟ وإلَّا فانظروا صورته في هذه الأبيات:

قِف بتلك القصورِ في اليمِّ غَرقى — مُمسكًا بعضُها من الذُّعرِ بعضا

كعذارى أَخفينَ في الماءِ بضًّا — سابحاتٍ به، وأَبدينَ بضَّا

شـابَ مـن حولهـا الزمـانُ وشـابت　　　وشـبابُ الفنـونِ مـازال غضَّـا

رُبَّ نقـشٍ كأنمـا نفـض الصـا　　　نـعُ منـهُ اليـدينِ بالأمـس نفضـا

ودُهـانٍ كلامـعِ الزيـت مـرَّت　　　أعصـرٌ بالسـراج والزيـتُ وضَّـا

وخطـوطٍ كأنَّهـا هُـدْبُ ريمٍ　　　حسُـنتْ صـنعةً وطـولًا وعرضـا

وضـحايا تكـادُ تمشِـي وترعَـى　　　لـو أَصـابت مـن قـدرة الله نبضـا

ومحاريـب كـالبروج بنتهـا عَزَمـاتٌ　　　مـن عزمـةِ الجـنّ أمضـى

ومن لم يَر قبرَ توتنخ آمون وما وجدَ فيه مستكشفُهُ من جواهرَ وطيوب يومَ:

أفضـى إلى خـتم الزمـان ففضَّـه　　　وحبـا إلى التـاريخ في محرابـهِ

فلينظرْ إليهِ مصوّرًا في هذا البيت:

وقـبرًا كـان مـن حُسـنٍ وطيـبٍ　　　يُضـيء حجـارةً ويضـوعُ طينـا

الأكثرون منَّا لم يروا الغوَّاصة ولكنهم يرونها، كما وصفها شوقي، مرسومةً على لوحة السينما:

ودبَّابـةٍ تحـتَ العُبـاب بمكمـنٍ أمـينٍ　　　تـرى السـاري ولـيسَ يراهـا

هـي الحـوتُ أو في الحـوتِ منهـا مَشابةٌ فلو كان فولاذًا لكان أخاها

أبَـثُّ لأصـحابِ السـفين غـوائلًا والأمُ نابًا حـين تفغَـرُ فاهـا

خَئـونٌ إذا غاصـت غـدورٌ إذا طفـتْ مُلَّعنـةٌ في سَـبْحِها وسُـراها

وشاهدوا بعد ذلك في قصيدة أو صورة أخرى كيف تهاجم هذه الغوَّاصة السفينةَ وتغرقها:

بَعَـثَ البحـرُ بهـا كـالموجِ مـن لجُـجِ السِّـندِ وخُلجـانِ الخَـزَرْ

لَمسَـتْها للمقـاديرِ يـدٌ تلمـسُ المـاءَ فيرمِـي بالشـررْ

ضَـرَبْتها وهـي سِـرٌّ في الـدُّجى لـيس دونَ اللهِ تحـتَ الليـلِ سـرْ

وَجَفَـتْ قلبًـا وخـارت جؤجُـؤًا وَنَـزَتْ جنبًـا وناءَت مـن أُخُـرْ

طُعِنَـتْ فانبجسـتْ فاستصـرخَتْ فأتاهـا حَينُهـا فهـي خـبرْ

أمَّا وصفه للطيارة منذ ثماني عشرة سنة، فلم نقرأ وصفًا يدانيه لشعراءِ الأمم التي ابتدعت هذا المركب الهوائي:

نصْـفُهُ طـيرٌ ونصـفٌ بشـرٌ يا لهـا إحـدى أَعاجيـبِ القضـاءِ!

حَمَـلَ الفـولاذَ ريشًـا وجـرى في عنـانينِ لـه نارٍ ومـاءِ

وجنـــاحٍ غـــيرِ ذي قادمـــةٍ كجنـاحِ النحـلِ مصـقولٍ سـواءِ

وذُنابَى كـــلُّ ريـــحٍ مسَّـــها مسَّـــهُ صـــاعقةٌ مـــن كهـــرباءِ

يـــتراءَى كوكبًـــا ذا ذنـــبٍ فـــإذا جـــدَّ فســـهمًا ذا مضـــاءِ

فـإذا جـاز الثُّـريَّا للثـرى جـرَّ كالطـــاووسِ ذيـــلَ الخـــيَلاءِ

**واسمعوا وصفَه معركة «أسترليز» الذي انتصر فيها نابوليون، الملقَّب بالنسر، على إمبراطوري روسيا والنمسا، فعرفت بمعركة الإمبراطرة الثلاثة، وهي صورةٌ لم يَرسم مثيلًا لها غير فيكتور هوجو شاعر نابوليون.**

حَـــوْلَ أُســـترليزَ كـــان الملتقَـــى واصـــطدامُ النســـرِ بالمستنســـرينْ

وُضِـــعَ الشـــطرنجُ فاســـتقبلتَهُ ببنـــانٍ عابـــثٍ باللاعبـــينْ

فـإذا المَلْكـانِ هـذا خاضـعٌ لـك في الجمـــع وهـــذا مســـتكينْ

صِـدْتَ شـاهَ الـروسِ والنمسـا معًـا مَـنْ رأى شـاهَينِ صِـيْدَا في كمـينْ؟

**وهذه صورة لدمشق من نوع تصوير المناظر الطبيعية:**

دخلتـــكِ والأصـــيلُ لـــه ائـــتلاق ووجهـكِ ضـاحكُ القَسَـمَاتِ طَلْـقُ

وتحـــت جنانِـــكِ الأنهـــارُ تجـــرِي		ومـــــــــــــلءُ رباكِ أوراقٌ ووُرْقُ

وترى كلَّ ألوانِ الخيال تتسابق تحت ريشته في وصف لبنان:

لبنــــانُ والخُلــــدُ اخـــــتراعُ اللهِ لم		يُوسَـــمْ بأزيـــن منهمـــا ملكوتُـــهُ

مَلِـكُ الهضـابِ الشُّـمِّ سـلطانُ الـربى		هـــامُ الســـحابِ عروشُـــه وتخوتُـــهُ

وكـــأنَّ أيامَ الشـــــبابِ ربوعُـــــهُ		وكـــأنَّ أحـــلامَ الكعـــابِ بيوتُـــهُ

وكـــأنَّ ريعـــانَ الصـــبا رَيحانُـــهُ		ســـرُّ الســـرورِ يجـــودُهُ ويوقوتُـــهُ

وكـــأنَّ أثـــداءَ النواهـــدِ تينُـــهُ		وكـــأنَّ أقـــراط الولائـــدِ توتُـــهُ

زُرتم معرضَ الصور الأخير، ورأيتم فيه لوحاتٍ كثيرة تمثِّلُ نَخِيلَ مصر، فهل رأيتم أبدعَ من هذا التصوير:

مـــآذنُ قامـــت هنـــا أو هنـــاك		ظواهرُهـــا دَرَجٌ مـــن شـــذَبْ

ولـــيس يُـــؤذِّنُ فيهـــا الرجـــالُ		ولكـن تصـيح عليهـا الغـرُبْ ...

تُخـــالُ إذا اتَّقـــدتْ في الضُّـــحى		وجـــرَّ الأصـــيلُ عليهـــا اللهَـــبْ

وطـافَ عليهـا شـعاعُ النهـارِ مـن		الصـحو أو مـن حواشـي السُّـحُبْ

وصـــــيفةَ فرعـــــونَ في سَـــــاحةٍ     مـــن القصـــر واقفـــةً ترتقـــبْ

قــد اعتصــبتْ بفصــوصِ العقيــقِ     مفصَّـــــلةً بشـــــذورِ الـــــذهبْ

وناطـــت قلائـــدَ مُرجانِهـــا علـــى     الصـــدرِ واتشـــحَّتْ بالقصـــبْ

وشـــدَّت علـــى ســـاقها مئـــزرًا     تَعقَّـــد مـــن رأسِـــها للـــذَّنَبْ

وزاد، وهو ما لا يستطيعه المصور:

أهــذا هــو النخــلُ مَلْــكُ الــرياضِ     أمــيرُ الحقــولِ عَــرُوسُ العــزَب

طعـــامُ الفقـــيرِ وحلـــوى الغـــنيّ     وزادُ المسَــــــافرِ والمغــــــتربْ

وإذا وصف هذا النخلَ في يومٍ غائم قال:

والنخـــلُ متَّشِـــحٌ بالغـــيم تحســـبهُ     هيـفَ العـرائسِ في بـيضٍ مـن الأُزُرِ

وإذا وصف النيل صوَّره بالألوان:

النيـــلُ العَـــذْبُ هـــو الكـــوثَرْ     والجنَّـــــةُ شـــــاطئهُ الأخضـــــرْ

ريَّانُ الصـــــــــفحةِ والمنظَـــــــرْ     مـــا أبهـــى الخُلْـــدَ ومـــا أنضَـــرْ

حبشـــــيُّ اللـــــونِ كجيرتـــــهِ     مـــــن منبعـــــهِ وبُحيرتـــــهِ

صَـــبغَ الشـــطَّينِ بسُـــمرتهِ لـــونًا كالمســـكِ وكـــالعنبَرْ



شوقي ونجلاهُ عليٌّ وحُسين في «الحمراء» بإسبانيا قبل عودته من المنفى.

ففي كل ما تقدَّم يُرينا الشاعرُ هذه الموصوفاتِ رأيَ العين مع كثيرٍ من الرونق والرواء.

وهو يجيد وصف المعنويات إجادته وصف المحسوسات، فيجعل البعيد قريبًا، والغائب شاهدًا، والخفيَّ ظاهرًا، كلُّكم يعرف هذين البيتين، وقد لخص فيهما رواية الحب بجميع فصولها الطويلة:

نظـــــرةٌ فابتســــــامةٌ فســــــلامٌ ... فكــــــلامٌ فموعِـــــــدٌ فَلِقَـــــــاءُ

ففــــــراقٌ يكــــــونُ فيــــــه دواءٌ ... أو فِــــراقٌ يكــــون منــــهُ الـــــداءُ

وإليكم تلخيص النظام الحكومي في الإسلام:

فرسمــــتَ بعــــدك للعبــــادِ حكومــــةً ... لا سُـــــــوقةٌ فيهـــــا ولا أُمـــــــراءُ

اللهُ فـــــوقَ الخلــــقِ فيهـــا وحــــدَه ... والنــــاسُ تحــــتَ لوائهــــا أكفــــاءُ

والــــدينُ يُسْــــرٌ والخلافــــةُ بيعــــةٌ ... والأمــــرُ شُــــورَى والحقــــوقُ قضــــاءُ

الاشــــــتراكيون أنـــــت إمــــامُهم ... لـــولا دعـــاوي القـــوم والغُلَـــواءُ

أَوَليس في هذه الأبيات القليلة نصوصٌ وأحكامٌ مفصَّلةٌ في عشرات المواد من دساتير الأمم؟

وهذا تلخيص لضروب الحكام الذين توالوا على عرش بني عثمان:

قياصــــرُ أحيـــانًا خلائـــف تارةً　　　خـــواقينُ طـــورًا والفخـــارُ المقلَّـــبُ

ومن الصور ما لا تكثرُ فيه التفاصيل، بل إنَّ خطوطًا قليلةً تمثل لنا أوفَى تمثيل ما أراده المصوِّر، وعند شوقي الكثير من هذه الصور السريعة العجلى في بيتٍ أو شطرٍ من بيت.

منها صورة المدفع عند إطلاقه:

إذا عصـــف الحديـــدُ احمـــرَّ　　　أُفــقٌ علــى جَنَبَاتِــه واســوَدَّ أُفــقُ

وصورة فرح الجنود:

طــارت قناهــا ســرورًا عــن مراكزهــا　　　وألقَــتِ الغمــدَ إعجــابًا مواضــيها

وصورة الفارس المغوار (أنطونيو) في المعركة:

قـد جُـنَّ تحـتي جـوادِي فهـو عاصـفةٌ　　　وجُــنَّ نصــلي بكفِّــي فهــو إعصــارُ

وصورة أقسام الجيش المنكسر وفراره:

لمَّــا صـــدعتَ جنـــاحَيهم وقلـــبَهمُ　　　طــاروا بأجنحــةٍ شــتَّى مــن الرعَــبِ

وصورة أسراب الطيارات، وهي تتضاءَلُ كلَّما حلَّقت صعودًا:

ذهبَــتْ تســمو فكانــت أعقُبًــا فنســـورًا فصـــقورًا فحَمامـــا

وصورة سوق الإحسَان والبائعات:

جبريـلُ يعـرضُ والملائـكُ باعـةٌ أيـن المســـاوِمُ في الثـــوابِ المشـــترِي

وإذا وصف يدَ الضريرِ تتلمَّسُ الأشياءَ قال:

ويــــــدُ الضـــــــرير وراءَهـــــا عـــــينٌ تـــــرَى

وهل أبدعُ وأروع من هذه الصورة لاستماع الليل نداءَ المغنِّي الشجِيّ:

يسـمعُ الليـلُ منـه في الفجـرِ «يا ليــ ـــلُ» فيصـغِي مسـتمهلًا في فـرارهْ

ويدخلُ في أنغام هذا الوتَر – وتر الوصف – المدحُ والرثاء؛ لأنَّهما ما خرجا عن أن يكونا وصفًا لأخلاق الناس وطباعهم، ووصفًا لأعمالهم وآثارهم، وهنا كان لنقَّادِ شوقي مجالٌ ليُؤَاخذوه بتعدُّد ممدوحيه واختلافهم، ومغالاته في الإطنابِ بهم والإغراق في أوصافهم؛ فاستنكروا الأنغامَ المتضارِبةَ المتنافِرة التي أخرجها من هذا الوَتَر.

أمَّا تعدُّد الممدوحين واختلافهم، فيشفَع بالمادح أنه توخَّى دائمًا غرضًا واحدًا في مدحهم، فإذا مدح على التوالي السلطانَ

عبد الحميد، ورجالَ الاتحاد والترقي الذين خلعوه، وإذا أطنب ذكر رجالٍ أنقره، بعد أن أطنب بذكر سلاطين الأستانة، فإنه قد غيَّر اسم الممدوحِ ولم يغيِّر مقصدَه من المدح، أو إن شئتم قولوا إنه بدَّل العنوانَ ولم يُبدِّل ما تحت العنوان، فهو دائمًا يطالب ممدوحَه بالإصلاح، ونشر الثقافة والعلم، وإقامة العدل، وبناء الملك على الشورى والدستور، ولقد قلنا في غير هذا الموقف١٨ إنَّ الشاعرَ شاعرٌ أيًّا كان الرويُّ الذي يختاره لقصيدته ما دامت نفسه حسَّاسة، وقريحته فيَّاضة بالشعور، وهل اسم الممدوحِ في شعر شوقي سوى الرويِّ، وهو القائل:

ولي غُـــــــزَر الأخـــــــلاق في المـــــــــدح والهـــــــوى

أمَّا مغالاتُهُ في هذا النوعِ من الوصف، ووضعُه الرجالَ الذين يصفهم — مدحًا أو رثاءً — فوقَ عامَّة البشر، فإنه يرجعُ إلى وصفه الناسَ كما يجب أن يكونوا، لا كما هم، ولهذا المذهب الأدبي أنصاره، وحاملُ لوائهِ الشاعر الفرنسيُّ «كورنيل» في رواياته التمثيلية، ونقيضُه فيه معاصره الشاعر «راسين»، فقالوا: إن الأول صوَّر أبطالَ رواياته كما يجب أن يكونوا، والثاني صوَّرهم كما هم؛ لذلك نعجبُ بأبطال الأول، ولكننا نحبُّ أبطال الثاني، ولذلك أيضًا يرتاحُ الكثيرون إلى مدائح شوقي؛ لأنَّها تحبِّبُ إلى الممدوحِ

الصفات التي قد لا تكونُ فيه في حين ينبغي أن يكونَ متحليًا بها، كما أنها تحبِّبُها إلى سائر الناس، فتجيء من هذه الناحية دعوةً إلى الكمال النفسي ومكارم الأخلاق.

ولقد أشار شوقي إلى مذهبه في المديح حيث قال:

| | |
|---|---|
| يُظهِـــرُ المـــدحُ رونـــقَ الرجـــلِ | الما جِد كالسيفِ يزدهي بالصقالِ |
| رُبَّ مـــــدح أذاعَ في النــــاس | فضــلًا وأتاهــم بقــدوةٍ ومثــال |
| وثنــاءٍ علـــى فـــتًى عـــمَّ قومًـــا | قيمــةُ العقــدِ حســنُ بعــضِ الــلآلي |

وعلى كلٍّ فإنَّ ما تضمنته المدائحُ الشوقية من النصائح والحِكم والإرشادِ، ومطالبةِ الممدوح بما نرتاحُ إليه ونريدُهُ أن يكونَ عليه، لَممَّا يسيغُ إغراقَه وغلوَّه.

وإذا كان قد مدح الكثيرين ممَّا حملَ البعض على اتهامه في إخلاصه وصحة اعتقاده في مديحه، فإنَّ الذين رثاهم، مخلصًا لهم بعد مماتهم؛ أوفرُ عددًا، حتى إن مراثيه لتؤلِّف جزءًا كاملًا من ديوانه، وهذا دليل الوفاء، والبر بالأصدقاء، يؤيدُ ما نقول أن أحد وزراء مصر كان قد أتى عملًا لا يتَّفق وصدق الوطنية فندَّد شوقي بهذا العمل في إحدى قصائده، ولكن لما تُوفِّي ذلك الوزير رثاه شوقي رثاءً بليغًا، وأشار إلى فعلته السابقة إشارةً لطيفة فقال:

أخــذتُك في الحيــاةِ علــى هنــاتٍ وأيُّ النـــاسِ لـــيسَ لـــهُ هنـــاتُ

فصـــفحًا في الـــترابِ إذا التقينـــا ولُوشِـــيَتِ العـــداوةُ والـــتراتُ

خُلِقـــتُ كـــأنَّني عيسَـــى، حـــرامٌ علـــى قلـــبي الضـــغينةُ والشـــماتُ

## الوَتر الخاص

وهناك وترٌ خامسٌ في قيثارة شوقي متنوِّعُ الأنغام، أُسمِّيه من باب التعميم وترَ الشاعر الخاص، المشدود إلى نياط قلبه، المتصل بدقائق شعوره، الناطق بخفيِّ وجدانه، نعم إنَّ ما نظمه في الدين والوطن والاجتماعيات والوصفِ صادرٌ عن شعورٍ عميق، كما رأيتم في كثيرٍ مما أوردنا من شعره في هذه الأبواب، ولكنَّ قوَّتَيَ النفس المتغلِّبتين في تلك الأنواع من النظم هما العقل والخيال، أمَّا الشعورُ الخاص، وأما العاطفةُ النفسية، فتظهران في شعرِهِ الليريقي أو الغنائي؛ في الغزل والنسيب، في مناجاته عهدَ الصبا، في بسمته لأولاده وحفدتِه، ودمعته على آبائه وأجداده، وتبسُّطه مع خلانه وأحبابه ... فهناك عواطف الحنان ولواعجُ الأشجان، وهناك خفقان الجوارح، ونبضاتُ الفؤاد.

ولكن هنا أيضًا رأى النُّقادُ مجالًا للمؤاخذة: فهذا النوع في نظرهم، قليلٌ في شعر شوقي، وهو على قلَّته، من النوع العاديِّ المطروق.

أمَّا قلَّتُه فقلَّةٌ نسبيةٌ؛ أي بالمقارنة بكثرة ما نظم، ولكن هذا القليل النسبي في الحقيقة كثير يؤلف وحده ديوانًا كاملًا.

وأمَّا رميُه بالابتذال فقد يكون مرجعه إلى أنَّ شوقي لم يعمد إلى تحليل عواطف النفس وميولها وأهوائها تحليلًا دقيقًا، فقد رأينا أنَّ فلسفتَه في اجتماعياته فلسفةٌ سهلةٌ خاليةٌ من التعقيد، وكذلك جاءَ وصفُهُ لتلك العواطف والأهواء وصفًا طبيعيًّا، خاليًا من الإيغال في التفصيل والتعمُّق في التحليل، وقد أعلن ذلك هو نفسُهُ بألطف أسلوب يوم طُلِبَ إليه في بعض مجالس الأدب أن يشطِّر بيتًا للبهاء زهير، فقال على البديهة:

يقولُ أُناسٌ: لو وصفتَ لنا الهوى ... لعلَّ الذي لا يعرفُ الحبَّ يعرفُ

فقلتُ: لقد ذقتُ الهوى ثمَّ ذُقتُهُ ... فواللهِ لا أدرِي الهوى كيف يوصفُ

وهو يعود إلى ذلك المعنى فيقول:

مُستَهامٌ في هواهُ مُدْنَفٌ ... يترضَّى مُستهامًا مُدْنَفَا

يا خليليَّ صِفَا لي حيلةً ... وأرى الحيلةَ أن لا تَصِفا

وخلاصةُ القول: إنَّ الهوى هو ما يشعرُ به والسلام.

وعندِي الهوى موصوفُهُ لا صِفاتُهُ إِذا سألوني: ما الهوى؟ قلتُ:

ما بيا...

وعند هذا الحدِّ تقفُ قوَّةُ البشر في عرفه:

صُــوني جمالَــكِ عنــا إننــا بَشَــرٌ    مـن الـترابِ، وهـذا الحسـنُ روحـاني

وهو في غَزَلِه، على وجه الإجمال، لا يخرجُ عن المعروف المألوف قديما عند الشعراء من وصف طول الليل ونواح الطير؛ والدمع والزفرات، والشباب والمشيب، والعيون والقلوب، والخدود والقدود، والكناية بالدرِّ عن الثغور، وبحلوكة الليل عن سواد الشعر ... تشابيهُ وكناياتٌ واستعاراتٌ قديمة، ولكنَّه يكسوها شيئًا من الجدَّة بالقالب الذي يُفرغها فيه:

يا ثغرَهـــــا، أمســــيتُ كالـــــْـ    ـــــغوَّاصِ أحلــــمُ بالجــــواهرْ

يا لحظَهــــا، مَـــــنْ أُمُّهـــا أو    مَـــــنْ أبوهــــا في الجــــآذِرْ

يا شَـــعرَها، لا تســـعَ في هتكـــي،    فشــــأنُ الليـــــلِ سَـــــاترْ

يا قــــــدَّها، حتَّـــــامَ تغـــــ    ـــدو عـــاذلًا وتـــروحُ جـــائِرْ

وبأيِّ ذنــــبٍ قــــد طعنــــ    ــتَ حشـــايَ يا قـــدَّ الكبـــائرْ

وإذا تكلَّم عن قلبهِ، قال كغيره من الشعراء إِنَّه خفق في ضلوعهِ، وسال في دموعه، ولكنه يجدِّد المعنى بالمقاربة بين الضدَّين:

تســـرَّبَ في الـــدموع فقلـــتُ وَلَّى　　　وصـــفَّق في الضـــلوع فقلـــتُ ثابا

ومع ذلك فكثيرًا ما نسمَعُ لقلبهِ نبضةً خاصةً عندما يضرب على هذا الوتر متألمًا، فيحرِّك أوتارَ القلوب، كقوله يُناجي من منفاه أحبابَه وعهدَه الماضي في وطنه:

باللهِ يا نَســـماتِ النيـــلِ في السَّـــحَرِ　　　هـلْ عنـدَكنَّ عـنِ الأحبـابِ مـن خَـبَرِ

هِجــتُنَّ لي لوعــةً في القلــب كامنــةً　　　والجــرحُ إن تَعترِضْــهُ نســمةٌ يَثُــرِ

ذكـرتُ مصـرَ ومـن أهـوَى ومجلسَـنا　　　علـى الجزيـرةِ بـين الجسـرِ والنَّهَـرِ

ومــا شــجانيَ إلَّا صــوتُ سَــاقيةٍ　　　تســتقبلُ الليــلَ بــين النــوح والعِـبَرِ

لا تجيشُ بين ضلوعهِ تلك العواطفُ الثائرة المتمرِّدة، تنبعث انبعاثَ الحمم المتَّقِدة من البراكين، وإن كان يقول:

ناقـــوسُ القلـــبِ يـــدقُّ لـــهُ　　　وحنـــايا الأضـــلُعِ معبـــدُهُ

بل إنَّ العواطفَ التي تفيضُ من قلبهِ عواطفُ هادئةٌ هنيَّة،

تسيلُ كجدولِ الماءِ المترقرق؛ فهو يدعو عادةً إلى الرأفةِ وكرَم الطباع:

إنَّ الشــــــجاعةَ في الرجــــــالِ غلاظــةٌ مــا لم يَزِنْهــا رأفــةٌ وســخاءُ

فسبيلُ القلوب خيرُ السُّبُلِ:

يا مالكًــــا رقَّ الرقــــابِ ببأسِــــهِ هــلَّا اتَّخــذتَ إلى القلــوبِ ســبيلا

وأمَّا الإحسان فهو عنوان الإنسانية:

المحســـــــنونَ هــــــمُ اللبـــــــبُ وسَـــــائرُ النـــــاسِ النُّفَايَــــــهْ

يطلبُ الثوابَ للمحسنِ، فقيرًا كان أم غنيًّا:

جبريـــلُ هلِّـــلْ في الســـماء وكــبِّرِ واكتبْ ثوابَ المحسنينَ وسطِّرِ

سَـلْ للفقــيرِ علــى تكرُّمِــهِ الغــنى واطلبْ مزيدًا في الرخاءِ لموسرِ

ويطلب من المحسن إليه مقابلةَ الإحسان بالشكران:

هــل تــرى أنــتَ؟ فــإني لم أجــدْ كجميــلِ الصــنعِ بالشــكرِ اقــترانا

وإذا الــدنيا خَلَــتْ مــن خــيِّرٍ وخلــت مــن شــاكرٍ هانَــتْ هــوانا

يعرفُ مريديهِ وخصومَهُ:

اللهُ يعلـــمُ مـــا نفســـي بجاهلـــةٍ      مَـــنْ أهـــلُ خلَّتِهـــا ممـــن يُعادِيهـــا

ولكنه يُحِبُّ الترفُّقَ والمداراة:

تغابيـــتُ حـــتى صـــحبتُ الجهـــولَ      وداريـــتُ حـــتى صـــحبتُ الحســـودْ

يذهبُ مذهبَ زُهير بن أبي سُلمى القائل:

ومَـــنْ لم يصـــانعْ في أمـــورٍ كثـــيرةٍ      يُضَـــرَّسْ بأَنيـــابٍ ويُوطَـــأْ بمنسِـــمِ

فيقول:

ومـن لم يُقِـمْ سـترًا علـى عيـبِ غـيرِهِ      يَعِشْ مُستباحَ العرضِ منهتِكَ السِّتْرِ

وهو لذلك لا يُضمِرُ ضغنًا ولا يحملُ حقدًا:

سُـحِبَتْ علـى الأحقـادِ أذيالُ الهـوَى      ومشَـى علـى الضـغْنِ الـودادُ المـاحي

وإذا اختلفت الآراءُ فإنَّ اختلافَها ينبغي ألَّا يتسرَّب إلى القلوب، قال في إحياءِ ذكرى قاسم أمين:

لقـــــد اختلفنـــــا والمُعـــــا      شِـــرُ قـــد يُخالفُـــهُ العشـــيرْ

في الـــرأي تضـــطغِنُ العقـــو      لُ ولـــيسَ تضـــطغِنُ الصـــدورْ

**أمَّا القول، حَسُنَ أو ساءَ، فهو مرآة النفس:**

والقـولُ إن عـفَّ أو سَـاءَت مواقعُـهُ ... صــدى الســريرةِ والآدابِ يحكيهــا

**وعلى كلٍّ فهذه فطرته:**

فطـــرتي، لا آخـــذُ القلـــبَ بهـــا ... خُلِـــقَ الشـــاعرُ سمحًـــا طَـــرِبا

**أمَّا برُّه بآبائه، وحدْبُهُ على أولاده فمثال عاطفتَي الأبوَّة والبنوَّة:**

**يلتفتُ إلى الماضِي فيُثيرُ منه ذكرياتٍ ضاحكةً أو باكية، قال في جدته:**

لِي جَـــــدَّةٌ تـــــرأَفُ ... بي أحـــنى علـــيَّ مـــن أبي

وكـــلُّ شـــيءٍ ســـرَّني ... تـــذهبُ فيـــه مـــذهبي

إن غَضِـــبَ الأهـــل علـــيَّ ... كلُّهـــمْ، لم تغضـــبِ

مشـــى أبي يومًـــا ... إليَّ مشـــيةَ المـــؤدِّبِ

غَضْـــبانَ قـــد هـــدَّدَ بالضـــ ... ـــربِ، وإن لم تَضْـــرِبِ

فلـــم أَجِـــدْ لي منـــهُ غَيـــ ... ـــرَ جَـــدَّتي مِـــن مَهْـــرَبِ

فجعلَتْـــــــــني خَلفَهـــــــــا أنجـــــو بهـــــا وأختـــــبي

وهي تقولُ لأبي بلهجةِ المُؤنِّبِ:

وَيـــــحَ لـــــه! وَيْـــــحَ هـــــــــذا الوالِـــــدِ المُعـــــذِّبِ!

ألمْ تَكُـــــــــن تَصْــــــــــنَعُ مـــا يَصْـــنَعُ إذْ أَنـــتَ صَـــبي؟

وقال في رثاءِ والدهِ، وقد أفضى إِلينا مرارًا أنها من قصائدهِ المفضَّلة في نظره:

أنا مَـــن مـــاتَ ومَـــنْ مـــات أنا لقـــيَ المـــوتَ كـــلانا مـــرَّتَينْ

نحـــنُ كنَّـــا مهجـــةً في بـــدنٍ ثمَّ صِـــرنا مهجـــةً في بـــدنَينْ

ثمَّ عُـــدنا مهجـــةً في بـــدنٍ ثمَّ نُلفَـــى جثـــةً في كفنـــينْ

ثمَّ نَحيَـــا في «عَلِـــيٍّ» بعـــدنا وبـــهِ نُبعَـــث أولى البعثتـــين

انظـــرِ الكـــون وقـــلْ في وصـــفهِ: كـــلُّ هـــذا أصـــله مـــن أبـــوين

فقـــدا الجنـــة في إيجـــادِنا ونَعِمْنـــا منهمـــا في جنَّتـــين

مـــــا أَبِي إلَّا أَخٌ فارقتُـــــهُ ودُّهُ الصـــدقُ وودُّ النـــاسِ مَـــينْ

طالمَــــا قمنــــا إلى مائــــدةٍ كانــتِ الكســرةُ فيهــا كســرَتين

وشــــربنا مـــــن إناءٍ واحـــــدٍ وغســـلنا بعــد ذا فيــه اليــدَين

وتمشَّــــينا يـــــدِي في يـــــدِهِ مـــن رآنا قـــال عنـــا أَخـــوَين

وإذا مـــتُّ وأُودعـــتُ الثـــرى أنُلقَّـــى حفـــرةً أم حفـــرتين ...؟

«ثمَّ نحيا في عليٍّ بعدَنا ...» هكذا بعد أن بكى نفسَهُ في أبيهِ الراحل، يراها تُبعَثُ في ابنه الناشئُ، فيقول في نجله «عليّ»:

وأَنـــــتَ مـــــني كروحِـــــي وأَنـــتَ مَـــنْ أَنـــتَ عنـــدِي

فينصرفُ إلى مناغاةِ أولادِه، وكأَنَّهُ يحوطهم بشعرِهِ كما يحوطهم بحنانِهِ وبرِّه، فإذا مرض نجلُهُ «حسين» مرض معه، وعُوفِيَ معه:

جرحُـــهُ كـــان بقلـــبي، يا أبًا[19] لا أُنبِّيـــهِ بجرحِـــي كيـــف كـــانا

لطـــــفَ اللهُ فعُوفينـــــا معًـــــا وارتَهَنَّـــا لـــكَ بالشـــكرِ لسَـــانا

وإذا وصف كريمتَه الطفلة قال:

كـــــم خفـــــق القلـــــبُ لهـــا عنـــد البُكـــا والضَّـــحِكِ

فــــإن مشـــــتْ فخـــــاطِرِي يســــــــبقُها كالممســــــــكِ

فاخر أميرُ الشعراءِ وباهَى بشعرهِ في الدين والوطن والحكمة، فقال تارةً:

وإني لطـــــــــيرُ النيـــــــــلِ لا طـــــــــيرَ غـــــــــيرهُ

وتارةً:

إذا قُلـــــــــتُ شـــــــــعرًا فـــــــــالقوافي حواضـــــــــر

ولكننا نراه أكثرَ تواضُعًا في هذا الباب؛ كأَنَّهُ في ما أخرجَهُ من نغماتِ هذا الوتر الخاص، غزلًا ونسيبًا ووصفًا لنفسيَّاتِهِ في مظاهرِها المنوَّعة، يشكُّ في صحَّةِ تعبيرهِ عن حقيقةِ شعوره ولواعج قلبه، فيتسَاءَلُ:

والشــعرُ دمــعٌ ووجــدانٌ وعاطفــةٌ يا ليتَ شعريَ هل قلتُ الذي أَجِدُ

قال أحدُ شعراءِ الفرنجةِ: «إن أبدعَ أشعاري هي التي في خاطرِي لم أنظمها.» وقال شوقي:

هـــو لحـــنٌ مُضـــيَّعٌ لا جـــوابًا قـــد عرفنـــا لـــهُ ولا مُســـتقرَّا

لـــك في طيِّـــهِ حـــديثُ غـــرامٍ ظـــلَّ في خـــاطرِ الملحِّـــنِ ســـرَّا

وفي قيثارةِ الشعرِ وترٌ ضربَ عليه الكثيرون من الشعراء، فلم يُوفقوا في الغالبِ إلَّا لاستخراج أصواتٍ منكرةٍ، مجونًا وهجاء، وقد

قطعَ شوقي هذا الوتر من قيثارتهِ، فكان عَفَّ الإلهام كما كان عَفَّ اللسَان، حتى لتستطيع أن تُلقِي بديوانِه جملةً بين يدَي العذراءِ في خدرها، تطالعهُ فلا تجد فيه ما يحمَرُّ لهُ وجهها خجلًا، وقد قال المرحوم إسماعيل صبري باشا – وهو من كنا نلقبُهُ بأستاذ الشعراء – في تقريظه «الشوقيات»:

مرحبًا بالمقالِ سمحًا كريمًا لم يشُبْهُ هجوٌ ولا إيذاءُ

وقال شوقي نفسه في أدَبِ السير والحديث:

وكُنْ في الطريقِ عفيفَ الخُطى شريفَ السماعِ كريمَ النَّظَرْ

وقد طبَّق هذه القاعدةَ على شعرهِ، فخلت قيثارتُهُ من وتَر المجون والهجاء، مكتفيًا بالأوتار الأخرى التي تغنَّى عليها، وقد جمعها في قوله:

والشعرُ ما لم يكنْ ذكرى وعاطفةً أو حكمةً فهو تقطيعٌ وأوزانُ

فنظم في سلك قصائدِه ذكرى الماضي، وعاطفةَ الحاضر والمستقبَل، والحكمةَ الخالدةَ المشتركة بين كل زمان، هذا هو الشعرُ لا تقطيع وأوزان.

•••

نقفُ عند هذا الحدّ من عَرْضِ الأنغام التي بعثها شوقي من قيثارةِ الشعر، ولو رجعتم إلى دواوينهِ ورواياتهِ لوجدتم الكثير، غير ما استشهدنا به، مما كان يصحُّ إيرادُهُ على سبيل الاستشهاد؛ فهناك منجمٌ من الألماس غنيٌّ، مهما نغترف منه يبقَ فيه القدرُ الوفير، فقريحةُ شوقي قريحةٌ خصبةٌ جوَّادةٌ فيَّاضة، امتدَّت شِباكها إلى مختلفِ الحوادث والشئون، فعادت منها بكرائم المعاني في حرائر الألفاظ؛ فكان شعرُهُ بجملتهِ سِجلًّا للتاريخ قديمِهِ وحديثه؛ نظمَ الكثير من وقائع التاريخ القديم شعرًا فخمًا، رصَّعه بالمواعظ والعِبَر، ودوَّن معظم حوادثِ التاريخ الحديث فصوَّر أبطالها تصويرًا يخلِّدُ منهم الأثر، فكان له القدحُ المعلَّى في الشعر السياسي والشعر القصَصيّ، أما قالوا قديمًا: إنَّ الشعراءَ حَفَظَةُ الآثار، ونَقَلَةُ الأخبار؟ وكثيرًا ما عمد إلى التاريخ يتَّخذه منبرًا، فيقف على أعواده معلِّمًا أو منذرًا: «ربَّما علَّم حيًّا مَنْ غَبَرْ.»

ولقد كنا نتمنَّى أن تُشرَح قصائدُهُ شرحًا تاريخيًّا يشتمل على بسط ما فيها من عوامل السياسة، ومن الإشارات إلى حوادثِ عصره لئلَّا تفوتَ مراميها من يطالعُها في آتِي الزمن.

وكان شوقي كثيرَ المطالعة والدرس، يُمهِّدُ بهما لما يريد نظمه، خذوا مثلًا قصيدتَه في «شكسبير» وقصيدتَه في «أرسطو»، تجدوا

فيهما خلاصة مطالعةٍ دقيقة لروايات شاعر الإنجليز وفلسفة حكيم الأغارقة، ويبدو أثرُ هذا الاطلاع الواسع حتى في القصائد التي كانت بِنْتَ يومِها؛ فإنَّه كان يغذِّيها بما ادَّخره في خاطرِهِ من قبل.

وعلى هذا المنوالِ كان يتخيَّر موضوعَهُ فيحتضنه يومًا أو شهرًا في ذهنِه، فيكسو المعاني وشيَ الكلام في فكرِهِ، ثمَّ يُمْلي قصيدتَه بألفاظٍ كيِّسة، عَذبةِ الإيقاع منسجمة الاتساق، فكأنه لا يعبِّر عن معانيه تعبيرًا، بل يُغنِّيها غناءً يتملَّكُ اللبَّ ويستولِي على الشعور، حتى إنه كثيرًا ما تُنسينا طلاوةُ الألفاظ، وحُسنُ توقيعِها في التركيب دقائقَ المعنى وبدائعَ التفصيل، فيتزلَّف نظمُه إلى الآذان فيطربها كما تُطرب الألحان، ويُحدِثُ في القلوب نشوةً كنشوةِ بنتِ الحان، وكم له من القصائد تستهوِي السامعَ دون تعليل هذا الاستهواء، فإذا طُلِب إليه أن يتخيَّر منها بيتًا أو مقطعًا ما درَى ما يختار، وكم رأينا من الذين لا يتذوَّقون الشعر يطرَبون لشعر شوقي طرَبَهم للموسيقى، وهم في ذلك على حدِّ قول أبي تمام:

ولهــم أَفهــمْ معانيهــا ولكــن رَوَت          كبــدِي فلــم أَجهــلْ شــجاها

أمَّا جودُ قريحتهِ فيتجلَّى في كثرة ما نظم، وفي طَرْقِهِ الموضوعَ الواحدَ في أكثر من قصيدة، وهو في كلِّ مرَّةٍ يجيءُ بالطريف

الجديد، كما يتجلَّى هذا الخصبُ في مدَى العشرات من قصائدِه التي تؤلِّف رواياتٍ كاملة، فما كان ينتهي من قصيدةٍ حتى يُعالج غيرها، وكأنَّه قد نسي الأُولى، فكان خاطرُه كالروض في الربيع يجود بالزهر متتابعًا، ويُنضج الثمرَ متعاقبًا، أو كالبلبل يتوالى تغريده:

نَغَـــمٌ في الســـماءِ والأرضِ شـــتَّى    مـــن معـــاني الربيـــعِ أو ألحانِـــهْ

فانقاد لهُ النظم وأسلس قيادَه، وجرى الشعر على لسانه مجرى الكلام فتكاد لا تقرأُ من نثره بضعةَ أسطرٍ حتى تجد بيتًا أو شطرًا، فحقَّ له أن يقولَ:

إذا قلــــــــــتُ شــــــــــعرًا    فــــــــــالقوافي حواضـــــــــــرْ

كما قال قديمًا الشاعرُ اللاتيني أوفيد:

كـــــــلُّ قـــــولٍ حاولتُـــــه    كــــــــان شــــــــــعرًا(٢٠)

ومن مظاهر هذا الخصب في القريحة واستنباط المعاني أنه طرق أبعد الموضوعات عن الشعر فاستخرج منها شعرًا طيِّبًا، كالنحلة تشتار عسلها من جميع أنواع الزهر، من ذلك قوله في طابع البريد:

ويُـــوافِي النفـــوسَ مـــني رســـولٌ    لم يكـــن خائنًـــا ولا نمَّامـــا

يَحْمـلُ الغـشَّ والنصـيحةَ، والبغـْ ـضاءَ والحُـبَّ، والرضـى والمَلامـا

ويعِـي مـا تُسـرُّهُ مـن كـلامٍ ويـؤدِّي كمـا وعـاهُ الكلامـا

ولقـد أُضـحِكُ العبـوسَ بيـومٍ فيـهِ أُبكِـي المـنعَّمَ البسَّـاما

وأُهـنِّي علـى النـوى وأُعـزِّي وأُفيـدُ الحرمـانَ والإِنعامـا

وقوله في وصف يدِ الطبيبِ الجرَّاح:

مـدَّها كالأجَـلِ المبسـوطِ في طَلَـبِ الـبُرءِ اجتهـادًا وافتنـانا

تَجِـدُ الفـولاذَ فيهـا مُحسـنًا أخـذَ الرفـقَ عليهـا والليـانا

لم تَخِـطْ للنـاسِ يومًـا كفنًـا إنمـا خاطـت بقـاءً وكيـانا

ولما أُعلن، عند إنشاء بنك مصر، أنْ ستُنشَد في الاحتفال قصيدةٌ لشوقي، سمعنا الكثيرين يقولون: «أين مجالُ الشعر مع ورَق النقد والمال؟ وأيُّ مرتعٍ في المادة للخيال!» ولكنَّ شاعرَنا عرف أن يستنبطَ من المادَّة مثلَ هذه الأبيات:

بالعلـمِ والمـالِ يبـنِي النـاسُ ملكهـمُ لم يُـبنَ ملـكٌ علـى جهـلٍ وإقـلالِ

هـاتوا الرجـالَ وهـاتوا المـالَ واحتشـدوا رأيًا لـرأيٍ ومثقـالًا لمثقـالِ

هـذا هـو الحجَـرُ الـدرِّيُّ بيـنكمُ ... فـابنوا بنـاءَ قُـرَيْشٍ بيتَهـا العـالي

دارٌ إذا نزلـت فيهـا ودائعُكـم ... أودعـتمُ الحَـبَّ أرضًـا ذاتَ إغـلالِ

آمـالُ مصـر إليهـا طالمـا طمَحَـتْ ... هـل تبخلـون علـى مصـر بآمـالِ

فإذا كان قد جارَى القدماءَ وحذا حَذوَهم في صياغة الشعر، وفي طرازِ مطالعه وأسلوب مقاطعه، فقد رأيتم كيف راض بحورَ القريض على أداءِ المعاني الجديدة ومعالجةِ الموضوعات العصرية، ولذلك قلنا — في مستهلِّ هذا البحث: إنه لم يشدَّ إلى قيثارة الشعر وترًا جديدًا، ولكنَّه استخرج من الأوتار التي ضرب عليها غيره من الشعراء أنغامًا مستجدَّةً عذبة المستمع، ولقد رأينا أمثلةً كثيرةً على ذلك في ما استشهدنا به له من الأبيات، وكثيرًا ما أصبح القديمُ جديدًا بفضل ما أكسبه من جمال اللفظ والتركيب، وروعة المعنى الذي ظهر بمظهر التجديد.

ولم يذهلْ شوقي عند هذا التجديد الذي شغف به الكثيرون فاتخذوه لهم شعارًا، قال:

طلعـوا علـى الـوادي برايـةِ عصـرِهم ... ولكـلِّ عصـرٍ رايـةٌ وشـعارُ

**ولكنه أراد هذا التجديدَ مقرونًا بالأناة والتُّؤدة:**

ومـــع المجـــدِّدِ بالأناةِ ســـلامةٌ ومـــع المجـــدِّدِ بالجمـــاح عثـــارُ

**فإن في الداعين إلى هذا المذهب من لا يفهمه إلَّا قائمًا على الهدمِ والتقويض، وليس لديهم شيءٌ من مُعدَّاتِ البناء والتشييد، فعلى مثل هذه الطائفة يحملُ الحملةَ الشديدة:**

لا تحـــذُ حـــذوَ عصـــابةٍ مفتونـــةٍ يجـدونَ كـلَّ قـديمٍ شـيءٍ مُنكـرَا

ولـو اسـتطاعوا في المجـامع أَنكـروا مـن مـات مـن آبائهـم أو عمَّـرا

مـن كـلِّ مـاضٍ في القـديمِ وهدمـهِ وإذا تقـــدَّم للبنايـــةِ قصَّـــرا

وأتـى الحضـارةَ بالصـناعةِ رثَّـةً والعلـمِ نـزرًا والبيـانِ مثرثـرًا

**بسطنا في ما تقدَّم صورةً لأميرِ الشعراءِ اقتبسنا الأَلوانَ والخطوطَ اللازمةَ لرسمِها من أقوالِه، وتحليلِ شاعريتهِ، وبيان مُميِّزاتها، وإذا كان هناك مِن نقصٍ أو عيب، فالذنبُ ذنبُ المصوِّر لا ذنب الأصل، ولقد تكون هذه الصورة أكملَ دلالةً وأَجلى رونقًا إذا قارنَّاها بغيرها، فقد فُطر الإنسان على حبِّ المقارنة فلا يدرك كُنه الأشياءَ إلَّا عن طريقها، وهذا صحيحٌ في المعنويات صحَّته في الماديات، وقد نكونُ أكثرَ من سوانا شغفًا بذلك عندما نتكلَّم عن**

أدبائنا وشعرائنا؛ فكلٌّ أديبٍ أو شاعرٍ في نظرنا يمتُّ بنسبٍ إلى أحد الأدباء الأقدمين؛ وما كتب أحدٌ عن شوقي إلَّا قارنه بأحد أعلام الشعر الغابرين؛ فهو وأبو تمام في حسن الديباجة نظيران، وهو وجرير في براعة التمدُّح بالأمراء صنوان؛ وهو المتنبي في الحكم كفؤان؛ وهو وابن هانئ في الفصاحة مِثلان، ألم يُطلق اسمه على داره؟ وهو والبحتري في جودة الصناعة ندَّان، ألم يقل هو نفسهُ عن نفسه:

إن الــذي قــد ردَّهــا وأعادَهــا    في بردتيــك أعــادَ فيَّ البحــترِي

وقد أعاد ذلك في معارضته لإحدى قصائد صبري باشا:

وتعارضــتْ فيــك القــرائحُ وانــبرى    لأبي نـــواسَ البحـــتريُّ المفلِـــقُ

ولا شكَّ أن في شِعره شيئًا من جميع هؤلاء. (٢١)

وقد تخطَّى بعضُ البحَّاث أُدباءَ العربِ إلى أُدباءِ الفرنجة، فرأوا فيه من فيكتور هوجو ولامَرتين وألفرد ده موسِّه، وهم أمراءُ الشعرِ في فرنسا يوم كان شوقي يطلبُ العلمَ في باريس.

وإذا كان قد حذا حذوَ هؤلاء وأولئك من شعراءِ الشرقِ والغرب في بعض مناحِي النظم، فإنه يكاد يكون في مظاهرِ حياتِه وشاعريته صورةً أمينةً لشاعر عريقٍ في القِدَم، عاش منذ أربعة

وعشرين قرنًا، وفي بلدٍ غير البلاد العربية، ولكنَّ الشعرَ كالعلمِ لا يحصره زمن، ولا يحدُّه وطن، فنتاج الفكرِ الإنسانيّ مشتركٌ بين المفكِّرين، مهما اختلف جيلهم وإقليمهم.

ازدهرت مدنيَّة مصر في أقدِم عصور التاريخ المعروفة، فكانت أصلًا لسائر المدنيات، ثمَّ كان لمدنيَّة قدماءِ اليونان وآدابهم من الأثر في تمدين سائر الأمم ما كان قبلها لآداب مصر، ولم يوفَّق العلماءُ لإماطة اللثام عن جميع أسرار الحضارة المصرية لنتعرَّف تمام أثرها في آداب اليونان، ولكنه أثر بليغ ثابت، ثمَّ عادت مصر، على عهد البطالسة، تقتبس من الآداب اليونانية، كما أخذ العرب في العصر العباسي ينقلون عنها، وهكذا العلم والأدب مداولة بين الأمم والشعوب.

لذلك خطر ببالنا، ونحن نطالُع شعرَ شوقي، اسمُ شاعرٍ يوناني، بل إنَّ شاعرَنا هو الذي أوحَى إلينا بهذا الخاطر لكثرة ما يُشير في شعره إلى اليونان وعلاقتهم بمصر وبالعرب:

ورأينـــا مصـــرًا تُعلِّـــمُ يـــونا نَ، ويـــونانَ تُقـــبِسُ العلـــمَ مصـــرا

تلـــك تأتيـــك بالبيـــانِ نبيًّـــا عبقـــريًّا، وتلـــك بالفـــنّ ســـحرا

ذلك شأنُ العلم، وذلك شأن اللغة أيضًا:

فتجــــــارَتِ اللغتـــــانِ للـــــــْ    ــــغاياتِ في الحَسَـــــبِ الصـــــميمْ

لغـــــةٌ مــــــن الإغريـــــقِ قيــــــِّ    ـــــمَةٌ وأُخــــرى مـــــن تمـــــيمْ

وكذلك شأن العلماءِ والأُدباءِ من الفريقين:

أَبُقْــراطُ مثُــل ابــنِ ســينا الــرئيسِ    وهــــــوميرُ مثــــــلُ أبِي الطيِّـــــبِ

ولكنَّ المصريين كانوا البادئين:

مشَـــــــتْ بمنـــــــارهم في الأرضِ    رومــا ومــن أنــوارِهم قَبَسَــتْ أثينــا

وهو يفاخر بظفره بحكمةِ اليونان:

ظفــــــــــرت بيــــــــــونانَ    القديمــــــــــةِ حكمــــــــــتي

وقبل كل هذا ألم يَقُلْ في ترجمة حياتهِ بعد أن ذكر أصول جدوده لأبيه وأُمِّه: «أنا إذن عربيٌّ، تركيٌّ، يونانيٌّ، جركسيٌّ، أُصولٌ أربعة، في فرعٍ مجتمعة، تكفله لها مصر كما كفلت أبوَيهِ من قبل.»

أمَّا هذا الشاعر اليوناني الذي نرى صورتُهُ ماثلةً في فقيدنا فهو الشاعر «بَندار».

## لَمحةٌ إلى حياتِه تُرينا الشبَهَ بين الشاعرين:

كان بندار في عصره، كشوقي، يلقَّب بأمير الشعراء، وكانت إمارة الشعرِ قبله معقودةً دائمًا لأثينا، حتى انتزعها منها وجعلها في مدينة «ثيبه» وطِنِه، وقد أغدق عليه الأقيالُ والحكام العوارفَ والنعم، فنهج نَهجَ الشعراءِ ممتدحًا بمآثر أولياءِ نعمته، غير أنه لم يُحجم في مدائحه عن التنديد بالظلم، والاستبداد معلنًا أنَّ الفضيلةَ والاستحقاقَ هما، دون سواهما، من الخيرات الباقيات، وكان أدبُه أدبًا عفيفًا طاهرًا شريفًا، وامتاز شعره بالانسجام والنصاعة والجلال، ولقد تغنَّى بوطنه ومفاخره، ولكن ذلك لم يصرف نظرَه عن عيوب مواطنيه ومحاسن سائر الأوطان، وجاءَ في الأسَاطير المنقولة عن عصره أنَّه كان نائمًا، وهو طفلٌ، تحت شجرة، فأقبل النحل على ثغره يقطر فيه عسلًا، وذلك رمزُ العذوبة والحلاوة في شعره، أمَّا موته فقد حسده عليه جميعُ الشعراء، فقد أدركته المنية، وهو في المسرح، بينما كانت العذارى ينشدنَ شعرَه، والشعب المحتشد يُصفِّق طرَبًا.

وكذلك كان شوقي في حياته، وفي مماته أيضًا؛ فكلُّنا يعرف أنه في الليلة التي فارق فيها الحياة كانت إحدَى المغنيات الشهيرات تُغنِّي قصيدته: «علَّموهُ كيف يجفو فجفا»، وكان الجمهورُ يُهلِّل

ويكبِّر لروعة الشعر، وبعد وفاته ببضع ساعاتٍ كان شبابُ مصر يُصفِّق متحمسًا لآخرِ قصيدة نظمها شوقي لتحية همة الشباب في حفلة مشروعِ القرش ...

•••

والآن وقد مات شوقي بعد أن مات حافظ، فإنَّ الناسَ يتساءلون عن مصير الشعر العربي ... ومن يُنكر أنَّ هذا الشعرَ قد مُني بخسارةٍ فادحةٍ بموت الشاعرين الكبيرين، خسارة شعرت بها مصر أكثر من سواها؛ لأنَّهما أجلساها الصدر في دولة الأدب، وشعرت بها مع مصر سائر الأقطار العربية؛ لأنَّهما كانا من مفاخر لسان العرب.

أمَّا التنبؤُ بمن سيخلف كلًّا منهما في المكان الذي تبوَّأه في مملكة القريضِ والبيان، فليس من السهل ولا بالمستطاع، فشاعرُ مصر، بل شاعرُ العرب، مكنونٌ في ضمير الغيب قد تُبرِزُه الحوادثُ في غدنا القريب، ولا يعزبنَّ عن البال أن ما أدركهُ كلٌّ منهما من الشهرةِ، وبُعدِ الصيتِ قد يكون طمس عبقرياتٍ كثيرة، ستنزل إلى الميدان بعد أن خلا من فارسيه المعلمين، كما أن ما أصابه كلاهما من المنزلة الرفيعة في حياته، والإشادة بذكره بعد مماته، سيشحذُ القرائح والأذهان للمباراة في حلبة الشعر.

**وليس من الحكمة والمنطق في شيء أن نندبَ الشعرَ والأدبَ بعد فقد ذَينك الشاعرَين، فالوادي الذي أنجب البارودي وصبرِي وحافظ وشوقي – ولا أذكرُ إلَّا الأموات الذين عاصرناهم – سيُنجبُ غيرَهم من عباقرةِ الشعرِ وأعلام الأدب، فمشعلُ الشعرِ لا ينضب زيته ولا يطفأُ نورُه، بل ينتقل دائمًا من يدٍ إلى يد، تغذِّيه القلوبُ النابضة والنفوسُ الحسَّاسة، وخيرُ ما يُقال في هذا المقام هذه الأبيات لشوقي:**

| | |
|---|---|
| قـــديمُ الشـــعاع كشـــمس النهـــارِ | جديـــــدٌ كمصـــــباحِها المُلْهَـــــبِ |
| أَبُقْـــراطُ مثـــلُ ابـــن ســـينا الـــرئيسِ | وهــــــوميرُ مثــــــلُ أبي الطيِّــــــبِ |
| وكلهـــــــمُ حجـــــــرٌ في البنـــــــاءِ | وغـــــرسٌ مـــــن المثمِـــــرِ المُعقِـــــب |

---

(١) على أثر وفاة المرحوم أحمد شوقي بك تألفت لجنة من الأدباء برياسة وزير المعارف؛ لإقامة حفلة تأبين كبرى للفقيد الكريم، وقد طلبت اللجنة من المؤلف أن يخطب عن «شاعرية شوقي ومميزاتها»، فوضع هذا البحث ولخصه في خطبة ألقاها في الحفلة التي أقيمت في دار الأوبرا الملكية بعد ظهر يوم الأحد ٤ ديسمبر سنة **١٩٣٢**.

(٢) البيت لشوقي.

(٣) من قصيدته في وصف الوقائع العثمانية اليونانية.

(٤) من قصيدته في تهيئة السجناء الذين كانت المحاكم العسكرية قد اعتقلتهم.

(٥) من قصيدته في رثاء «فردي».

(٦) التوم جمع تومة، وهي الحبة من الفضة تعمل على شكل الدرة.

(٧) الأيم: الدخان.

(٨) دار السلام: بغداد. السلم: التسليم.

(٩) الضمير يعود إلى روما.

(١٠) وشيجة: متصلة القرابة.

(١١) الذائد: الحامي. النضاح: الدافع.

(١٢) «١٢ عامًا في صحبة أمير الشعراء» بقلم أحمد عبد الوهاب أبو العز.

(١٣) الحتم المجاب: هو الموت.

(١٤) الآراد: جمع رأد. والمراد رأد الضحى وهو وقت ارتفاع الشمس.

(١٥) العنان: بفتح العين السحاب.

(١٦) القوام: ما يقيم الإنسان.

(١٧) شُهَدُ: جمع شُهدة وهي العسل.

(١٨) راجع البحث بهذا الموضوع في فصل شوقي شاعر الأمراء.

(١٩) الخطاب موجه إلى الجرَّاح الأكبر علي باشا إبراهيم.

(٢٠) (Quidquid tentabam dicere versus erat (OVIDE.

(٢١) ترى فيه من نسج البحتري، ومن صياغة أبي تمام، ومن وثبات المتنبي، ومن مفاجآت الشريف، ومن مسلسلات مهيار (خليل مطران).

# الفهرس